

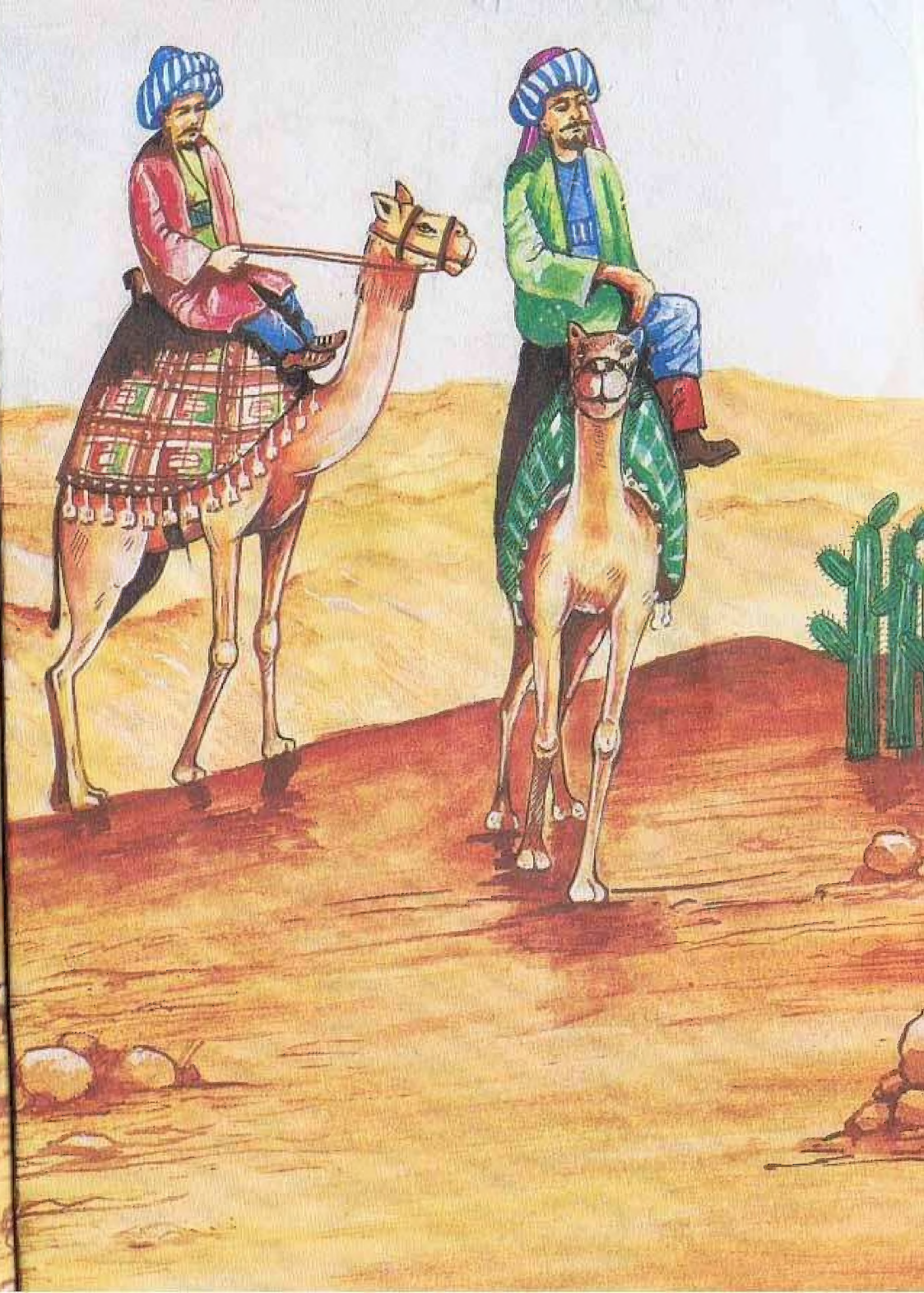
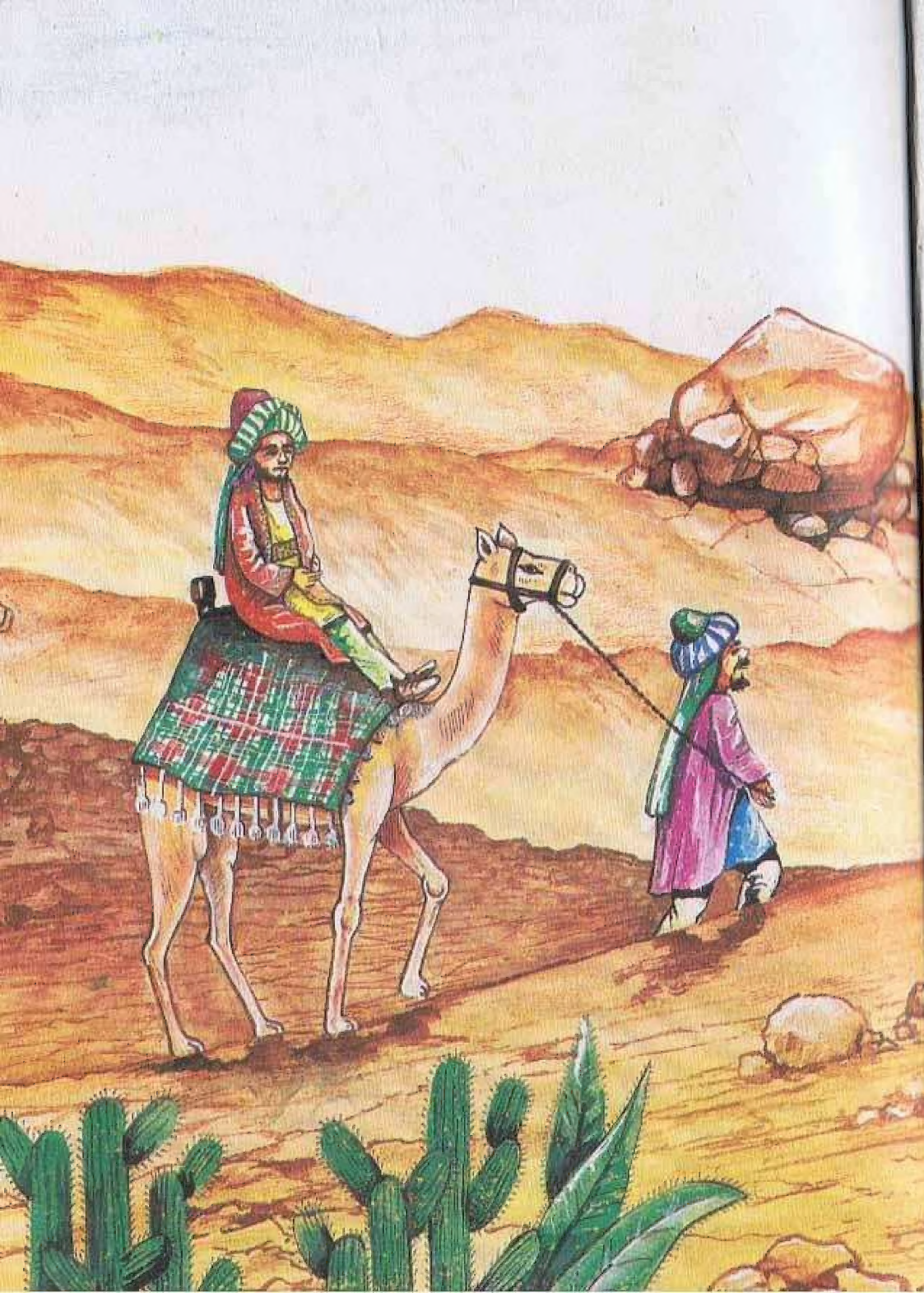
# رحلة كبرياء الدين



المغامرات المثيرة





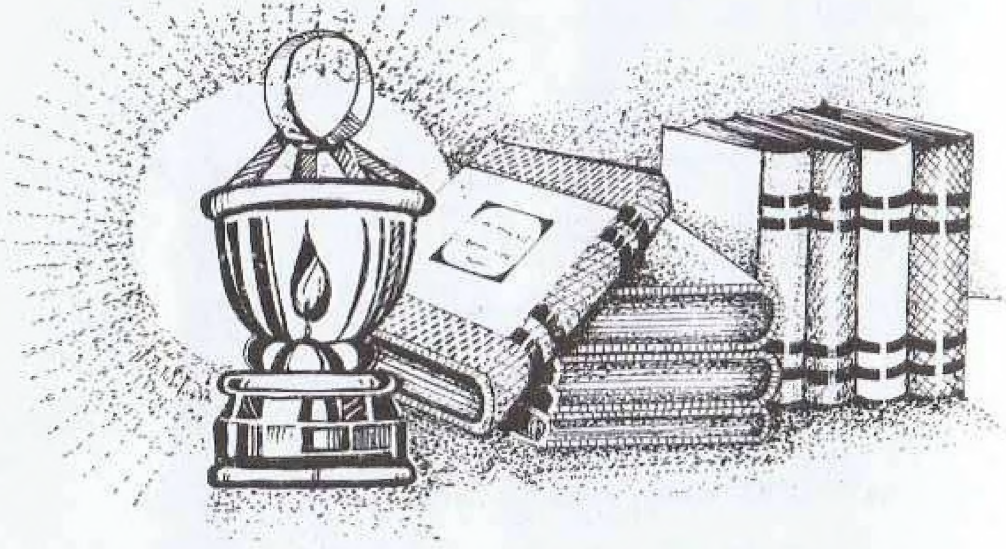




# رحلة كبر الدين



المغامرات المثيرة



تأليف : مجدي صابر

رسوم : شكري هشام

مكتبة لبنات ناشرون

رئيس التحرير : وجدي رزق غالي

مكتبة لبنات ناشرون

زقاق البلاط - ص.ب. ٩٩٣٤ - بيروت - لبنان  
وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم

© الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجان ، ١٩٩٤

١٠ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي ، الجيزة - مصر

جميع الحقوق محفوظة : لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب ، أو تخزينه  
أو تسجيله بأي وسيلة ، أو تصويره دون موافقة خطية من الناشر .

رقم الإيداع : ٧٥٠٨ / ١٩٩٣

الطبعة الأولى ١٩٩٤

الترقيم الدولي : ٩ - ١٣٦ - ١٦ - ٩٧٧ ISBN

طبع في دار توبار للطباعة بالقاهرة



## الفصل الأول ضياغ الثروة

في قديم الزمان كان يعيش شاب يدعى « كريم الدين » ، ورث عن أبيه مالا كثيرا وضياغا وقصورا وجواهر . ومع ذلك عاش متبطلا لا هيا ، لا شاغل له غير إنفاق المال والتمتع بكل أطيب الحياة ، دون أن يفكر في تنمية ماله ، أو الانشغال بعمل .

وكان والد كريم الدين هو رئيس التجار السابق « حكيم الدين » . وقد كان رجلا حكيما وتاجرا ماهرا ورحالة علامة ، جاب بلادا كثيرة ، ورست سفنه على شواطئ بعيدة ، وأثقت لغات عديدة ؛ ومن ثم صار مثالا يحتذى في الهمة والحكمة والمعرفة والقدرة على التغلب على كل الصعاب .

غير أن كريم الدين لم يرث من صفات والده شيئا ، بل كان على النقيض تماما : كسولا ، خائر الهمة ، لا تقوده حكمة أو

يهديه علم .

وقد ألف السهر ليلا مع أصحابه حتى الفجر ، فكان لا ينام إلا وطلوع الشمس ، ولا يستيقظ قبل غروبها .

وحيثما كان التجار من أصدقاء والده يلمونه على تبطله وخور همته ، وقد كان والده - رحمه الله - تاجرا أربيا ، وملاحا نجيبا ، وحكيما أديبا ؛ كان كريم الدين يجيئهم هازئا :

« هل تريدون مني أن أشقى وأكبد وأجوب البحار وأعزو الجزر وأحارب اللصوص وأتعلم اللغات لأجل كسب المال ؟ فإن كنت أملك منه ما يفوق الحصر ؛ فما حاجتي إذا لمثل هذه الأمور ؟ وما فائدة المال الذي أملكه إذا لم أنفقه في التمتع بمباهج الحياة ؟ » فما يكون من رفاق أبيه الراحل إلا أن ينصرفوا أسفين على أن يقول حصاد سني رئيس التجار إلى هذا السفه .

ومرت أعوام بكريم الدين وهو على تلك الحال ، ينفق في غير تعقل أو اعتدال ، حتى نضب معين المال .

وذاث يوم استيقظ كريم الدين - كدابه - بعد العصر ، وشفق يديه فأقبل القائم على أمواله ، فسأل كريم الدين دهشا : « أين الخدم والسعاة والطهارة ؟ لماذا لم يلب أحد ندائي ؟ »



أَجَابَهُ وَكَيْلُ أَعْمَالِهِ : « لَقَدْ رَحَلُوا جَمِيعًا فِي الصَّبَاحِ ؛ لِأَنَّهُمْ  
لَمْ يَأْخُذُوا أَجُورَهُمْ مِنْذُ شَهْوَرٍ . »

تَعَجَّبَ كَرِيمُ الدِّينِ وَقَالَ : « وَلِمَاذَا لَمْ يَحْصُلُوا عَلَى أَجُورِهِمْ ،  
وَالْمَالُ وَفَيْرٌ وَالْخَيْرُ عَمِيمٌ ؟ »

أَجَابَهُ وَكَيْلُهُ : « ذَلِكَ كَانَ فِيمَا مَضَى ، يَا سَيِّدِي ، حِينَمَا  
كَانَتْ خَزَائِنُكَ مُكْتَظَّةً بِالْمَالِ وَالْجَوَاهِرِ ، وَتُصَوِّرُكَ حَافِلَةً بِالْمَوَائِدِ .  
وَلَكِنَّكَ رُحْتَ تَنْفِقُ الْمَالَ عَلَى أَصْدِقَائِكَ حَتَّى نَفِدَ ، وَتُهْدِي  
الْجَوَاهِرَ لِصَدِيقَاتِكَ حَتَّى خَلَتْ مِنْهَا الْخَزَائِنُ . أَمَّا قُصُورُكَ فَرُحْنَا  
نَبِيعُهَا الْوَاحِدَ بَعْدَ الْآخَرِ ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْهَا سِوَى هَذَا الْقَصْرِ ،  
الَّذِي بَعْنَا مَفْرُوشَاتِهِ وَتُحَفَهُ الَّتِي جَمَعَهَا وَالذِّكَّ حَكِيمُ الدِّينِ مِنْ  
كُلِّ الْأَنْحَاءِ ؛ فَلَمْ تَبْقَ حُجْرَةٌ مَفْرُوشَةٌ غَيْرُ حُجْرَتِكَ . »

غَضِبَ كَرِيمُ الدِّينِ وَصَاحَ : « كَيْفَ حَدَثَ هَذَا ، دُونَ أَنْ  
أَعْلَمَ بِهِ ؟ »

أَجَابَهُ وَكَيْلُهُ : « حَدَثَ ذَلِكَ ، يَا سَيِّدِي ، خِلَالَ شَهْوَرٍ طَوِيلَةٍ ،  
كُنْتُ أَحَاوِلُ فِيهَا مُقَابَلَتَكَ وَإِخْبَارَكَ بِمَا يَحْدُثُ وَيَجْرِي ، وَلَكِنِّي  
كُنْتُ أَجِدُكَ نَائِمًا بِالنَّهَارِ ، أَوْ سَاهِرًا لَاهِيًا بِاللَّيْلِ ، غَيْرَ رَاجِبٍ فِي  
الِاسْتِمَاعِ وَالْإِنْصَاتِ ، وَكُنْتُ مُضْطَرًّا لِأَنْ أَلْبِي كُلَّ مَطْلَبٍ لَكَ ،

بَعْدَ فَرَاغِ النُّقُودِ ؛ فَبِعْتُ الْقُصُورَ وَالضِّيَاعَ وَالْأَمْلاكَ ، وَفَرَشَ  
الْحُجُرَاتِ ، وَالْمَتَاعَ ، حَتَّى تَعَذَّرَ عَلَيْنَا دَفْعُ أَجْرَةِ الْخَدَمِ ؛ فَرَحَلُوا عَنْ  
الْقَصْرِ هَذَا الصَّبَاحَ . »

بُهِتَ كَرِيمُ الدِّينِ ، وَانْعَقَدَ لِسَانُهُ . وَفَجْأَةً انْدَفَعَ إِلَى الْحُجْرَةِ  
عَدَدٌ مِنَ الْحَمَّالِينَ الْأَشْدَاءِ ، وَرَاحُوا يَنْقُلُونَ مَتَاعَ الْحُجْرَةِ وَلَمْ  
يَتْرَكُوا شَيْئًا ؛ فَصَاحَ بِهِمْ كَرِيمُ الدِّينِ فِي دُهُولٍ : « مَاذَا تَفْعَلُونَ  
أَيُّهَا الْأَشْقِيَاءُ ؟ وَالْيَ أَيْنَ تَأْخُذُونَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ ؟ »

أَجَابَهُ وَكَيْلُ أَعْمَالِهِ : « لَقَدْ نَسِيتُ إِخْبَارَكَ ، يَا سَيِّدِي ، بِأَنَّنِي  
بِعْتُ هَذَا الْمَتَاعَ فِي الصَّبَاحِ ؛ لِأَسَدِّدَ بِثَمَنِهِ مَا تَنَاوَلْتَهُ وَأَصْدِقَاؤُكَ  
مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ فِي مَسَاءِ الْأَمْسِ . » فَاسْقَطَ فِي يَدِ كَرِيمِ الدِّينِ ،  
وَلَمْ يَجِدْ مَا يَنْطِقُ بِهِ .

وَبَعْدَ أَنْ فَرَعَ الْحَمَّالُونَ مِنْ حَمْلِ الْمَتَاعِ ، تَأَمَّلَ كَرِيمُ الدِّينِ  
الْحَوَائِطَ الْعَارِيَةَ وَالْأَرْضِيَّةَ الْخَالِيَةَ ، وَقَالَ كَأَنَّهُ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ : « لَمْ  
يَبْقَ لِي غَيْرُ جُذْرَانِ هَذَا الْقَصْرِ ، كَأَنَّهُمَا أَطْلَالُ عِزٍّ قَدِيمٍ . »

قَالَ الْوَكِيلُ : « ثَمَّةَ كُتُبَ كَثِيرَةٍ حَافِلَةٌ بِالْمَعَارِفِ وَالْعُلُومِ ،  
تَمْتَلِئُ بِهَا مَخَازِنُ الْقَصْرِ ، وَهِيَ أَثْمَنُ مِنَ الْجَوَاهِرِ وَاللَّالِئِ . »

قَالَ كَرِيمُ الدِّينِ سَاخِرًا : « مَاذَا تَقُولُ أَيُّهَا الْخَرِفُ ؟ مَاذَا أَفْعَلُ ؟ »



بِهَذِهِ الْكُتُبِ ؟ هَلْ سَتَمُنَحْنِي صَفَحَاتِهَا طَعَامًا وَشَرَابًا ، أَمْ أَيْعُهَا  
بِالذَّهَبِ وَالْجَوَاهِرِ ؟»

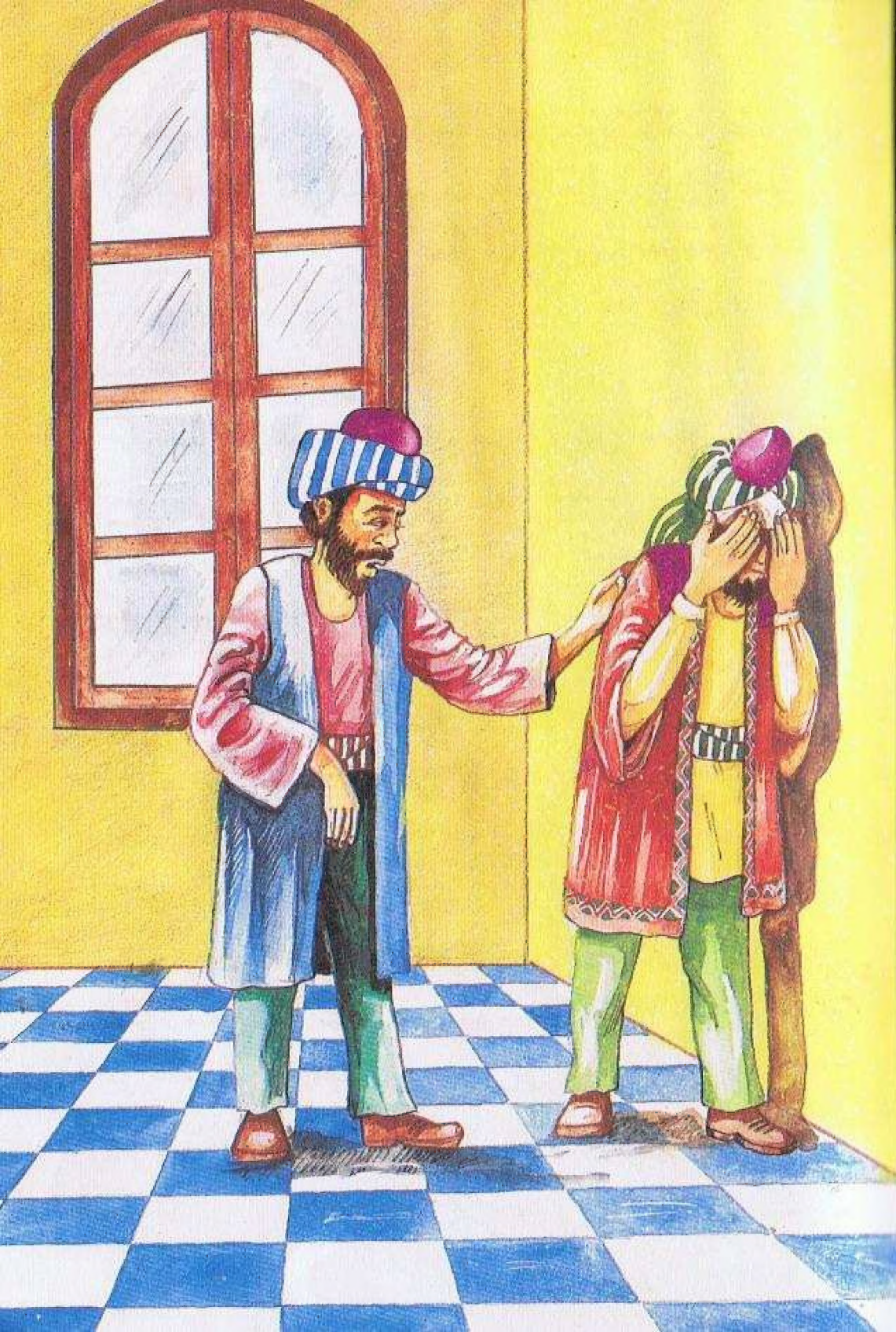
وَ وَضَعَ رَأْسَهُ بَيْنَ كَفَيْهِ ، وَقَالَ مُتَأَلِّمًا : « كَيْفَ سَتَكُونُ حَيَاتِي  
بَعْدَ الْآنِ ؟ وَمَاذَا أَفْعَلُ بَعْدَ أَنْ فَرَغَ مَالِي وَضَاعَ إِرْثِي ؟ »

قَالَ الْوَكِيلُ : « الْأَفْضَلُ أَنْ تَبْحَثَ لَكَ عَنْ عَمَلٍ ، يَا سَيِّدِي ؛  
لِتَتَعَيَّشَ مِنْهُ ، وَرَبُّمَا يُعَوِّضُكَ مَجْهُودُكَ وَكَذَلِكَ عَمَّا ضَاعَ . »

إِبْتَسَمَ كَرِيمُ الدِّينِ فِي مَرَارَةٍ وَقَالَ : « أَيُّ عَمَلٍ هَذَا الَّذِي  
سَيُعِيدُ لِي مَا ضَاعَ ، وَأَنَا لَا أَجِدُ أَيَّ عَمَلٍ ؟ وَمَا هُوَ الْعَمَلُ الَّذِي  
سَيَجْعَلُنِي أَكْسِبُ آلَافَ الدِّينَارَاتِ ؛ لِأَعُوِّضَ مَا فَقَدْتَهُ ؟ »

قَالَ الْوَكِيلُ : « لَا تَنْسَ ، يَا سَيِّدِي ، أَنَّ وَالِدَكَ الرَّاحِلَ ، رَئِيسَ  
التُّجَّارِ ، بَدَأَ حَيَاتَهُ عَامِلًا فِي مَشْجَرٍ لِلْأَقْمِشَةِ ، قَبْلَ أَنْ يَمْتَلِكَ الْمُتَجَرَّ  
بِكَدِّهِ ، ثُمَّ صَارَ كَبِيرًا لِلتُّجَّارِ ، وَعَبَّرَ الْمَحِيطَاتِ وَالْأَنْهَارَ ، وَامْتَلَكَ مَا  
لَا يَخْطُرُ عَلَى الْبَالِ . »

أَمَرَ  
هَزَّ كَرِيمُ الدِّينِ رَأْسَهُ وَقَالَ : « لَا ، هَذَا مُسْتَحِيلٌ ! إِنِّي لَا أَفْقَهُ  
شَيْئًا فِي التُّجَّارَةِ أَوْ الْمِلَاحَةِ ، بَلْ لَا أَفْقَهُ شَيْئًا فِي أَيِّ أَمْرٍ ، وَلَا أَجِدُ  
غَيْرَ إِتْفَاقِ النُّقُودِ . وَلَكِنْ مِنْ أَيْنَ أَحْصِلُ عَلَيْهَا لِكَيْ أَنْفِقَهَا ؟ »





وَهَبْ كَرِيمُ الدِّينِ وَاقِفًا بَعْدَ لَحْظَةٍ ، وَقَدْ تَأَلَّقَتْ عَيْنَاهُ بِرَبِيقِ  
السُّرُورِ ، وَقَالَ : « كَيْفَ نَسِيتُ هَذَا الْحَلَّ ؟ إِنَّ لِي الْعَدِيدَ مِنَ  
الْأَصْدِقَاءِ ، مَا أَكْثَرَ مَا أَهْدَيْتَهُمْ مِنْ مَالِي وَضَمَمْتَهُمْ مَوَائِدِي !  
وَلَيْسَ عَلَيَّ غَيْرُ اللُّجُوءِ إِلَيْهِمْ ؛ لِيَقْرَضُونِي بَعْضُ الْمَالِ ، أَوْ يَهْبُوهُ  
لِي عَلَى سَبِيلِ الْهَدِيَّةِ . »

وَأَنْطَلَقَ مِنْ فُورِهِ دُونَ أَنْتِظَارِ نَصِيحَةٍ وَكَيْلِ أَعْمَالِهِ . وَلَكِنَّهُ عَادَ  
بَعْدَ مُدَّةٍ وَقَدْ اكْفَهَرَتْ مَلَامِحُهُ وَبَانَ الْغَضَبُ فِي عَيْنَيْهِ ، وَقَالَ  
لِوَكِيلِهِ : « لَقَدْ تَهَرَّبَ مِنِّي أَصْدِقَائِي ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ اعْتَذَرَ بِفَقْرِهِ  
وَعَوَزِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَعَلَّلَ بِأَنْ مَالَهُ كُلُّهُ أُوْدَعَهُ فِي تِجَارَةٍ عَبْرَ الْبَحَارِ ،  
أَوْ بِخَسَارَةِ أَلَمْتُ بِهِ ، وَرَفَضُوا جَمِيعًا إِقْرَاضِي دِرْهَمًا وَاحِدًا ،  
بِالرَّغْمِ مِنْ تَأْكَدِي مِنْ يُسْرِهِمْ وَغِنَاهُمْ . كَمْ كُنْتُ غَمِيًّا وَمُبْذَرًّا  
وَأَنَا أَنْفَقُ عَلَيْهِمْ نَقُودِي وَمَالِي كُلَّ لَيْلَةٍ دُونَ حِسَابٍ ، وَأَظْنُهُمْ مِنْ  
أَخْلَصِ الْأَصْدِقَاءِ ! »

قَالَ الْوَكِيلُ : « قَدْ تَعَلَّمْتَ الدَّرْسَ الْأَوَّلَ فِي حَيَاتِكَ ،  
يَا سَيِّدِي . وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَهُ مُتَأَخِّرًا لِلْأَسَفِ الشَّدِيدِ ، وَلَنْ يُفِيدَكَ الْآنَ  
بِشَيْءٍ ، فَلَكُمْ حَاوَلْتُ تَبْصِيرَكَ بِهِذِهِ الْحَقِيقَةِ ، وَلَكِنَّكَ لَمْ تَسْتَمِعْ  
لِي قَطُّ ، وَلَمْ تُعَرِّ أذْنِيكَ لِأَيِّ نَاصِحٍ . »

لَمْ يَرُدَّ كَرِيمُ الدِّينِ ، وَبَدَأَ عَلَيْهِ الْكَرْبُ الشَّدِيدُ ، ثُمَّ جَلَسَ عَلَى

الْأَرْضِ وَرَاحَ فِي تَفْكِيرٍ عَمِيقٍ ، وَوَكِيلُهُ يُرَاقِبُهُ صَامِتًا . وَرَفَعَ كَرِيمُ  
الدِّينِ رَأْسَهُ وَقَالَ : « آه ! لَوْ تَمَكَّنْتُ مِنَ الْحُصُولِ عَلَى مِصْبَاحِ عِلْمِ  
الدِّينِ ؛ لَأَسْتَدْعَيْتُ الْجَنِّيَّ السَّاكِنَ فِيهِ ، وَأَمَرْتُهُ أَنْ يَجْلِبَ لِي مِنْ  
الْمَالِ قَدْرًا مَا يَسْتَطِيعُ . »

هَزَّ الْوَكِيلُ رَأْسَهُ سَاخِرًا ، وَقَالَ : « لَا أَحَدٌ يَمْتَلِكُ هَذَا الْمِصْبَاحَ  
الآنَ ؛ فَلَا وُجُودَ لَهُ إِلَّا فِي الْأَسَاطِيرِ . »

لَمَعَتْ عَيْنَا كَرِيمِ الدِّينِ ، وَتَسَارَعَتْ أَنْفَاسُهُ فِي إِثَارَةِ بِالْغَةِ ،  
وَهُوَ يَقُولُ :

« إِنِّي سَمِعْتُ عَنْ نَاسِكٍ عَجُوزٍ قَدْ انْقَطَعَ لِعِبَادَةِ اللَّهِ فَوْقَ  
الْجِبَالِ ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى إِخْضَاعِ الطُّيُورِ وَالْحَيَوَانَاتِ . وَيُقَالُ إِنَّهُ يَقْدِرُ  
عَلَى فِعْلِ أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ ، وَإِنَّ الْقَصْدِيرَ وَالنُّحَاسَ وَالتُّرَابَ كُلُّهَا  
تَتَحَوَّلُ إِلَى ذَهَبٍ وَلَالِيٍّ بَيْنَ يَدَيْهِ . فَإِذَا ذَهَبَتْ إِلَيْهِ وَرَجَوْتُهُ أَنْ  
يُعَلِّمَنِي كَيْفَ يَفْعَلُ ذَلِكَ ؛ أُمْكِنِّي أَنْ أَحُولَ كُلَّ مَا تَقَعُ عَلَيْهِ  
يَدَايَ إِلَى ذَهَبٍ ؛ فَأَتْرِي ثَرَاءً فَاحِشًا . »

زَوَى الْوَكِيلُ مَا بَيْنَ حَاجِبَيْهِ دَهْشَةً ، وَقَالَ : « لَقَدْ سَمِعْتُ عَنْ  
هَذَا النَّاسِكِ وَأَفْعَالِهِ الْعَجِيبَةِ مِنْذُ سِنِينَ بَعِيدَةٍ ، يَا سَيِّدِي . وَلَكِنْ يُقَالُ  
إِنَّهُ يَعِيشُ فَوْقَ جَبَلٍ بَعِيدٍ جِدًّا ، يُسَمَّى جَبَلَ الْحِكْمَةِ ، وَيَتَطَلَّبُ



الْوُصُولُ إِلَيْهِ سَفَرًا مُتَوَاصِلًا ، عَلَى ظُهُورِ الْجِمَالِ وَالْبِغَالِ ، وَاجْتِيازَ  
المَحِيطَاتِ وَالْبِحَارِ ، وَعُبُورَ الْوَهَادِ وَالْجِبَالِ ، وَمُلاقاةَ مَخْلُوقَاتِ  
عَجِيبَةٍ : مَرْدَةٍ مُتَوَحِّشِينَ وَأَقْرَامَ . وَقَدْ حَاوَلَ كَثِيرُونَ بُلُوغَ مَكَانِهِ ،  
فَفَقَسِلُوا فِي ذَلِكَ ، وَمَاتُوا فِي الطَّرِيقِ الْوَعْرِ ، أَوْ عَلَى أَيْدِي هَذِهِ  
الْمَخْلُوقَاتِ الْمُتَوَحِّشَةِ .

صَاحَ كَرِيمُ الدِّينِ فِي حَمَاسٍ : « لَا يَهْمُنِي مَا حَدَثَ لِلْآخَرِينَ ،  
فَسَوْفَ أَبْذُلُ كُلَّ جَهْدِي لِلْوُصُولِ إِلَى مَكَانِ هَذَا النَّاسِكِ ، وَلَوْ  
كَانَ يَقَعُ فِي نِهَايَةِ الْعَالَمِ ؛ فَلَا بُدَّ أَنْ أَبْلُغَ مَكَانَهُ مَهْمَا كَانَتْ  
الْمَخَاطِرُ الَّتِي سَاقِاقِيهَا ، مَا دُمْتُ سَاصِلُ فِي النِّهَايَةِ إِلَى الثَّرَاءِ  
الَّذِي أَنشُدُهُ مِنْ خِلَالِهِ . وَسَوْفَ أَبِيعُ هَذَا الْقَصْرَ الَّذِي تَبَقَّى مِنْ  
أَمْلاكِ أَبِي ، وَأَنْفَقُ ثَمَنَهُ عَلَى رِحْلَتِي . فَهَيَّا ابْحَثْ لِي عَنْ مُشْتَرٍ  
لِهَذَا الْقَصْرِ . »

وَذَهَبَ الْوَكِيلُ وَعَادَ وَمَعَهُ الْمُشْتَرِي ، فَقَبِلَ كَرِيمُ الدِّينِ مَا  
عَرَضَهُ ، وَتَنَاوَلَ ثَمَنَ قَصْرِهِ أَلْفَ دِينَارٍ مِنَ الذَّهَبِ ، وَضَعَهَا فِي  
حِزَامِ عَرِيضٍ أَخْفَاهُ تَحْتَ مَلَابِسِهِ حَوْلَ بَطْنِهِ ، وَاشْتَرَى جَوَادًا قَوِيًّا .

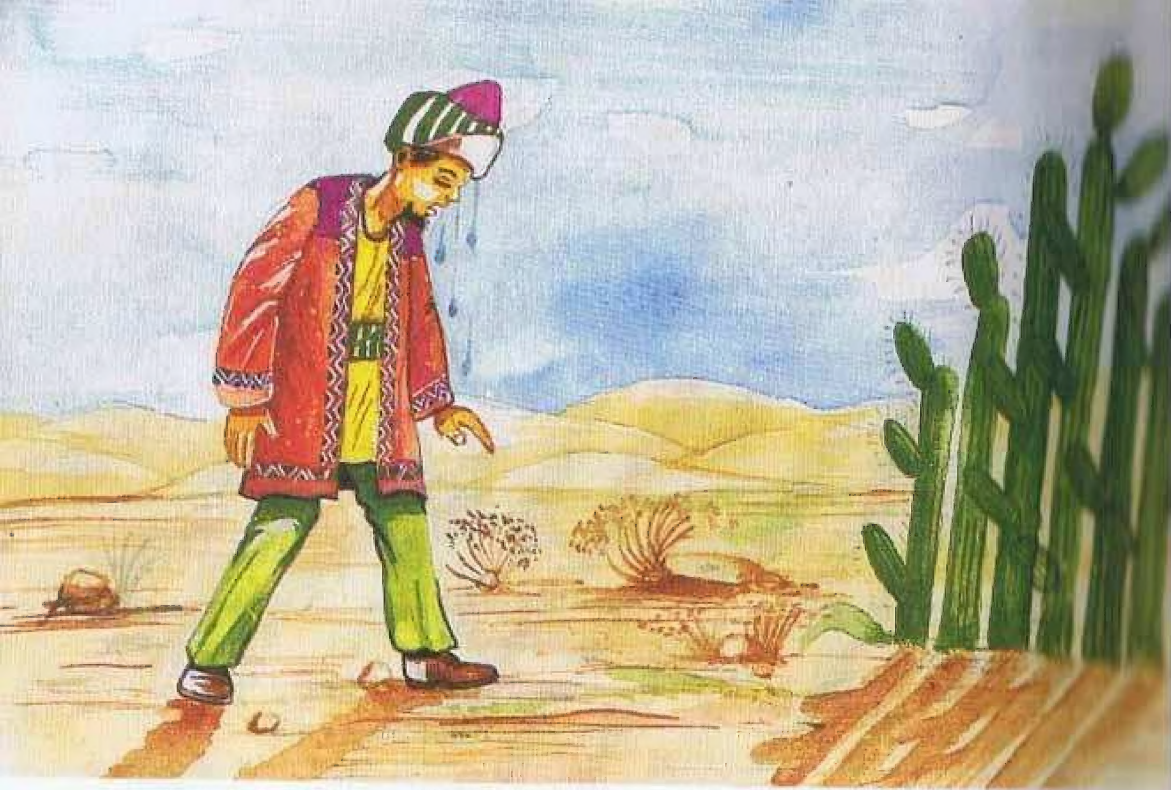
قَالَ لَوَكِيلِهِ وَهُوَ يَتَأَهَّبُ لِلرَّحِيلِ : « اِنْتَظِرْنِي فِي هَذَا الْمَكَانِ وَلَوْ  
طَالَ الزَّمَانُ . وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَنْ يَشْنِينِي عَنِ السَّعْيِ لِتَحْقِيقِ هَدَفِي غَيْرُ  
الْمَوْتِ . »

أَطْرَقَ الْوَكِيلُ بِرَأْسِهِ ، حَزِينًا لِفِرَاقِ كَرِيمِ الدِّينِ ، ثُمَّ قَالَ  
لَهُ : « لَقَدْ بَعْنَا الْقَصْرَ ، يَا سَيِّدِي ، وَلَكِنَّا لَمْ نَبْعَ مَا يَحْتَوِيهِ مِنْ  
كُتُبٍ عَدِيدَةٍ ، فَمَاذَا أَفْعَلُ بِهَا ؟ »

أَجَابَهُ كَرِيمُ الدِّينِ سَاخِرًا : « فَلْتَبْهَأْ لِبَاعَةِ الْفَاكِهَةِ ، لِيَبِيعُوا  
فِيهَا بِضَاعَتَهُمْ ، أَوْ لَتُغْرِقْهَا فِي النَّهْرِ ، أَوْ تُلْقِهَا حَطْبًا لِلنَّيْرَانِ . »

وَأَمْتَطَى كَرِيمُ الدِّينِ صَهْوَةً جَوَادَهُ ، ثُمَّ انْطَلَقَ بِهِ ، وَهُوَ يَلْكُرُهُ  
بِقُوَّةٍ ، فَأَنْدَفَعَ الْجَوَادُ بِكُلِّ سُرْعَتِهِ نَحْوَ صَحْرَاءِ التِّيهِ ، الَّتِي كَانَتْ  
أَوَّلَ مَا يَتَعَيَّنُ عَلَى كَرِيمِ الدِّينِ أَنْ يَجْتَازَهُ فِي رِحْلَتِهِ غَيْرِ الْمَأْمُونَةِ .





وَسَرَّعَانَ مَا أَلْهَبَتِ الشَّمْسُ الْحَارِقَةُ وَالرَّمَالُ الْمُلْتَهَبَةُ رَأْسَهُ وَجَسَدَهُ ،  
فَشَعَرَ كَأَنَّمَا اشْتَعَلَتْ فِيهِ النَّارُ ، وَجَفَّ حَلَقُهُ تَمَامًا ، وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى  
السَّيْرِ خُطْوَةً أُخْرَى ، فَجَلَسَ خَلْفَ بَعْضِ أَشْجَارِ الصَّبَّارِ الْكَبِيرَةِ ،  
يَحْتَمِي بِظِلِّهَا مِنَ الْحَرَارَةِ الْمُتَقَدَّةِ . وَعِنْدَ الْمَسَاءِ أَوْشَكَ عَلَى الْهَلَاكِ  
عَطَشًا وَقَدْ أَخَذَتْهُ الْحُمَى ، فَصَاحَ فِي وَهْنٍ : « مَاءً .. أريدُ مَاءً . إِنِّي  
مُسْتَعِدٌّ أَنْ أَدْفَعَ عَشْرَةَ دَنَانِيرَ ذَهَبِيَّةٍ مُقَابِلَ جُرْعَةٍ مَاءٍ ، بَلْ مِئَةِ  
دِينَارٍ .. بَلْ كُلِّ مَا أَمْلِكُ . »

وَسَقَطَ فَاقِدًا وَعِيَةً وَهُوَ يَهْدِي بِكَلِمَاتٍ مُخْتَلِطَةٍ . وَانْقَضَى وَقْتُ  
لَا يَدْرِي مِقْدَارَهُ قَبْلَ أَنْ يَفْتَحَ عَيْنَيْهِ ، فَشَاهَدَ نَفْسَهُ رَاقِدًا دَاخِلَ

## الفصل الثاني صَحْرَاءُ التَّيِّهِ

اسْتَمَرَ الْجَوَادُ فِي رَكُضِهِ أَيَّامًا عَدِيدَةً . وَكَانَ كَرِيمُ الدِّينِ يَرْكَبُهُ  
نَهَارًا وَيَسْتَرِيحُ لَيْلًا . وَبِسَبَبِ قِلَّةِ خَبَرَتِهِ فِي رُكُوبِ الْجِيَادِ وَمُعَامَلَتِهَا ،  
مَاتَ جَوَادُهُ سَرِيعًا فِي صَحْرَاءٍ قَاحِلَةٍ ، لَا زَرْعَ فِيهَا وَلَا مَاءً . وَنَفِدَ  
مَا حَمَلَهُ كَرِيمُ الدِّينِ مَعَهُ مِنْ مَاءٍ ، فِي نِصْفِ الْوَقْتِ الَّذِي كَانَ  
مُقَدَّرًا لَهُ .

تَحَيَّرَ كَرِيمُ الدِّينِ ، وَتَلَفَّتْ حَوْلَهُ ، وَقَالَ لِنَفْسِهِ : « مَا الْعَمَلُ  
الْآنَ وَقَدْ مَاتَ الْجَوَادُ ، وَلَا وَسِيلَةَ لِمُغَادَرَتِي هَذِهِ الصَّحْرَاءَ ؟ لَقَدْ  
ضَلَلْتُ طَرِيقِي ، وَلَا أَدْرِي فِي أَيِّ اتِّجَاهٍ أَسِيرُ لِأَصِلَ إِلَى نِهَائِهَا ،  
وَقَدْ أَخَذَ مِنِّي الْعَطَشُ كُلَّ مَاخِذٍ ، وَأَشْعُرُ أَنَّ شَفَتِي تَشَقَّقَتَا لِشِدَّةِ  
جَفَافِهِمَا . »

وَأَخَذَ يَسِيرُ فِي الرَّمَالِ الْكَثِيفَةِ ، وَهُوَ يَنْتَزِعُ مِنْهَا قَدَمَيْهِ بِمَشَقَّةٍ .



هُودَجٍ فَوْقَ ظَهْرِ جَمَلٍ ، يَسِيرُ بِهِ سَيْرًا مُتَمَهِّلًا . وَرَاحَ يُحَاوِلُ أَنْ  
يَتَذَكَّرَ مَا جَرَى لَهُ . كَانَ آخِرَ مَا وَعَاهُ عَطَشُهُ الشَّدِيدُ وَفَقْدَانُهُ لَوَعِيهِ ،  
بَعْدَ الْحُمَى الَّتِي أَصَابَتْهُ . وَأَخَذَ يَتَسَاءَلُ فِي ذَهْشَةٍ عَمَّا جَرَى لَهُ  
بَعْدَ ذَلِكَ ، وَعَمَّنْ وَضَعَهُ فَوْقَ ذَلِكَ الْهُودَجِ . وَتَغَلَّبَ قُضُولُهُ عَلَى  
ضَعْفِهِ فَأُطْلِيَ مِنْ بَيْنِ سَتَائِرِ الْهُودَجِ ، فَشَاهَدَ قَافِلَةً مِنَ الْجِمَالِ ،  
وَقَدْ سَارَ الْجَمَلُ الَّذِي يَحْمِلُهُ فِي مُؤَخَّرَتِهَا . وَرَأَى عَدَدًا مِنَ الرِّجَالِ  
وَقَدْ أَخْفَى كُلُّ مِنْهُمْ وَجْهَهُ بِلِثَامٍ لَا يُظْهَرُ غَيْرَ عَيْنَيْهِ وَأَنْفِهِ ، وَقَدْ  
ظَهَرَ وَسَطُهُمْ رَجُلٌ عَلَيْهِ مَخَابِلُ السَّمَاحَةِ ، ذُو لِحْيَةٍ بَيضاء ، بَدَأَ  
وَكَانَتْهُ قَائِدُ الْقَافِلَةِ .

قَالَ الرَّجُلُ لِرِفَاقِهِ : « سَوْفَ نَتَوَقَّفُ قَلِيلًا عِنْدَ الْوَاحَةِ الْقَرِيبَةِ ؛  
لِإِرَاحَةِ الْجِمَالِ وَاطْعَامِهَا ، وَلِنَمْلَأُ نَحْنُ قَرَبْنَا بِالمَاءِ الْعَذْبِ . »

هَتَفَ كَرِيمُ الدِّينِ فِي الشَّيْخِ ذِي اللَّحْيَةِ الْبَيضاء : « أَنْتَ أَيُّهَا  
الرَّجُلُ الطَّيِّبُ ؟ مَنْ تَكُونُ ؟ وَإِلَى أَيِّ تَتَجَهَّوْنَ بِي ؟ »

تَهَلَّلَ وَجْهُ الشَّيْخِ عِنْدَمَا شَاهَدَ كَرِيمَ الدِّينِ ، وَقَالَ لَهُ : « لَقَدْ  
أَفْقَتَ أَحْيَرًا ، يَا وَلَدِي ، بَعْدَ أَيَّامٍ مِنْ فَقْدَانِكَ الْوَعْيِ وَهَذْيَانِكَ ؛  
فَالْحَمْدُ لِلَّهِ . لَقَدْ ظَنَنَّا أَنَّ الْحُمَى سَتَذْهَبُ بِكَ بَعْدَ أَنْ عَثَرْنَا عَلَيْكَ  
مُصَادِفَةً أَثْنَاءَ رَحِيلِنَا لَيْلًا . أَمَّا عَنْ وَجْهَةِ سَيْرِنَا ، فَحَنُّ نَقْصِدُ المِينَاءَ

الكَبِيرَ ، فَهُوَ نِهَائَةُ رَحْلَتِنَا ، وَسَنَبْلُغُهُ بَعْدَ بَضْعَةِ أَيَّامٍ بِإِذْنِ اللَّهِ . »

تَسَاءَلَ كَرِيمُ الدِّينِ ذَهْشًا : « وَهَلْ ظَلَلْتُ فَاقدًا وَعَمِيَّ عِدَّةَ أَيَّامٍ ؟  
هَذَا أَمْرٌ غَرِيبٌ ! فَإِنَّا لَمْ أَشْعُرْ بِشَيْءٍ قَطُّ ، وَكَأَنَّ مَا جَرَى لِي ،  
كَانَتْ حَوَادِثُهُ بِالْأَمْسِ فَقَطُّ . »

أَجَابَهُ الشَّيْخُ مُبْتَسِمًا : « إِنَّ مَرِيضَ الْحُمَى لَا يَشْعُرُ بِشَيْءٍ حَوْلَهُ  
فِي فِتْرَةٍ مَرَضِيهِ . وَقَدْ قُمْنَا بِرِعَايَتِكَ وَتَرْطِيبِ جَبْهَتِكَ بِاسْتِمْرَارٍ ،  
وَسَقَيْكَ التَّمْرَ الْمَذَابَ فِي اللَّيْلِ أَثْنَاءَ مَرَضِكَ . »

أَحْسَ كَرِيمُ الدِّينِ بِالِاسْتِنَانِ ، فَقَالَ لِلشَّيْخِ : « شُكْرًا لَكَ أَيُّهَا  
الرَّجُلُ الطَّيِّبُ . لَقَدْ أَثَقَلَتْ حَيَاتِي بَعْدَ أَنْ أَوْشَكْتُ عَلَى الْهَلَاكِ  
عَوْلًا . »

وظَهَرَتِ الْوَاحَةُ بَعْدَ قَلِيلٍ ، فَأَسْرَعَتِ الْقَافِلَةُ صَوْبَهَا ، وَقَدْ دَبَّ  
النَّشَاطُ فِي جِمَالِهَا ؛ فَقَدْ أَدْرَكَتْ بِخَبَرَتِهَا أَنَّ الْوُصُولَ لِلوَاحَةِ يَعْنِي  
المَاءَ وَالْعُشْبَ وَالرَّاحَةَ فِي الظِّلِّ . وَتَوَقَّفَ الرُّكْبُ أَمَامَ عَيْنِ عَدْبَةٍ  
لِلْمَاءِ تَحْتَ ظِلَالِ النَّخِيلِ ، فَهَبَطَ كَرِيمُ الدِّينِ مِنَ الْهُودَجِ ، وَجَلَسَ  
مَعَ رِجَالِ الْقَافِلَةِ ، الَّذِينَ تَحَلَّقُوا حَوْلَهُ تَحْتَ ظِلِّ نَخِيلِ الْوَاحَةِ ،  
بَعْدَ أَنْ ارْتَوَوْا مِنْ مَائِهَا الْعَذْبِ .

قَالَ أَحَدُهُمْ : « أَخْبَرْنَا بِحِكَايَتِكَ ، وَمَا جَرَى لَكَ ، وَلِمَاذَا كُنْتَ



تَقْطَعُ هَذِهِ الصَّحْرَاءَ وَحَدَّكَ ؟

لَمْ يُخَيِّرْهُمْ كَرِيمُ الدِّينِ إِلَّا بِسَعْيِهِ لاجْتِيَاذِ الصَّحْرَاءِ الوَاسِعَةِ  
فَوْقَ ظَهْرِ جَوَادِهِ لِعَمَلٍ خَاصٍّ بِهِ .

قَالَ الشَّيْخُ ذُو اللَّحْيَةِ دَهْشًا : « لَا أَحَدٌ يَقْطَعُ مِثْلَ هَذِهِ الصَّحْرَاءِ  
بِجَوَادٍ ؛ فَالْجِيَادُ تَعْطَشُ سَرِيعًا ، وَتَحْتَاجُ لِمَاءٍ كَثِيرٍ لَا يَتَوَقَّرُ فِي هَذِهِ  
الصَّحْرَاءِ ، لِذَلِكَ فَلْأَفْضَلُ السَّفَرُ خِلَالَهَا بِالْجِمَالِ ؛ لِأَنَّهَا تَخْتَرُنُ  
المَاءَ ، وَتَسْتَطِيعُ تَحْمُلَ الْعَطَشِ أَيَّامًا طَوِيلَةً . كَمَا أَنَّ أَفْضَلَ وَقْتُ  
لِلسَّفَرِ خِلَالَ هَذِهِ الصَّحْرَاءِ هُوَ اللَّيْلُ ؛ لِتَجَنُّبِ اشْعَةِ الشَّمْسِ  
الْحَارِقَةِ ، الَّتِي تَسْتَنْزِفُ مَاءَ الْإِنْسَانِ ، وَتُصِيبُهُ بِالْحُمَّى وَالْجَفَافِ ،  
عَلَى أَنْ تَرْتَاحَ نَهَارًا فِي أَقْرَبِ ظِلٍّ أَوْ دَاخِلِ الْخِيَامِ . »

شَحَبَ وَجْهَ كَرِيمِ الدِّينِ ، وَأَطْرَقَ بِرَأْسِهِ وَقَالَ : « إِنِّي لَمْ أَكُنْ  
أَعْرِفُ كُلَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ ؛ فَهِيَ الْمُرَّةُ الْأُولَى الَّتِي أَضْطَرُّ فِيهَا  
لِلسَّفَرِ فِي الصَّحْرَاءِ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَنَّكُمْ عَثَرْتُمْ عَلَيَّ فِي الْوَقْتِ  
الْمُنَاسِبِ ، قَبْلَ أَنْ أَمُوتَ مِنَ الْعَطَشِ وَالْحُمَّى . »

رَبَّتْ شَيْخُ الْقَافِلَةِ عَلَى كَيْفِ كَرِيمِ الدِّينِ ، وَقَالَ لَهُ : « لَقَدْ  
كَانَ بِجَوَارِكَ مَخْزَنٌ لِلْمَاءِ الْعَذْبِ ، كُنْتَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْهَلَ مِنْهُ مَا  
تَشَاءُ ، وَلَكِنَّكَ لَمْ تَنْتَبِهْ إِلَيْهِ ، وَكَذَلِكَ تَمُوتُ عَطَشًا بِسَبَبِ قِلَّةِ

خَبَرْتُكَ بِالصَّحْرَاءِ . »

دَهَشَ كَرِيمُ الدِّينِ ، وَقَالَ : « كَيْفَ ذَلِكَ ؟ لَمْ يَكُنْ بِجَوَارِ  
أَشْجَارِ الصَّبَّارِ أَيْ مَصْدَرِ الْمَاءِ ؛ فَقَدْ فَتَشْتُ الْمَكَانَ جِدًّا قَبْلَ أَنْ  
أُفْقِدَ وَعْيِي . »

أَجَابَهُ الشَّيْخُ مُبْتَسِمًا : « إِنَّ أَشْجَارَ الصَّبَّارِ ذَاتَهَا هِيَ أَفْضَلُ  
مَصْدَرٍ لِلْمَاءِ ؛ فَهِيَ تَمْتَصُّهُ مِنَ التُّرْبَةِ أَوْ عِنْدَ سُقُوطِ الْأَمْطَارِ ،  
وَتَخْتَرُنُهُ دَاخِلَ سِقَانِهَا طَوِيلًا ؛ لِتَسْتَهْلِكَهُ عَلَى مَهْلٍ فِي الْأَيَّامِ  
الْقَاحِلَةِ . وَإِذَا مَا اقْتَطَعْتَ أَحَدَ جُذُورِ الصَّبَّارِ وَأَغْصَانِهَا ، وَاعْتَصَرْتَهُ  
بِفَمِكَ ، نَلْتَ مَاءً عَذْبًا . »

لَمْ يَجِدْ كَرِيمُ الدِّينِ مَا يَرُدُّ بِهِ عَلَى حَدِيثِ الشَّيْخِ ، وَعَضَّ  
شَفَتَيْهِ نَدَمًا عَلَى تَسْرُعِهِ بِالسَّفَرِ دُونَ دِرَايَةِ بِأَحْوَالِ الصَّحْرَاءِ  
وَطَبِيعَتِهَا . وَنَامَ أَصْحَابُ الْقَافِلَةِ فِي الْمَكَانِ الظُّلِيلِ حَتَّى غَرُوبِ  
الشَّمْسِ ، فَشَارَكَهُمْ كَرِيمُ الدِّينِ نَوْمَهُمْ ، وَاسْتَيْقَظَ نَشِيطًا عَلَى  
صَوْتِ شَيْخِ الْقَافِلَةِ وَهُوَ يَدْعُو الْجَمِيعَ لِلرَّحِيلِ .

كَانَ الْمَسَاءُ قَدْ حَلَّ ، وَعَشِيَ الصَّحْرَاءُ ظِلَامٌ دَامِسٌ إِلَّا مِنْ  
نُجُومِ السَّمَاءِ ، الَّتِي بَدَتْ كَمَصَابِيحٍ مُتَوَهِّجَةٍ وَسَطِ الْعَتَمَةِ ، وَقَدْ  
سَادَ جَوٌّ لَطِيفٌ بَعْدَ أَنْ ذَهَبَتْ حَرَارَةُ الشَّمْسِ . وَتَأَمَّلَ شَيْخُ الْقَافِلَةِ

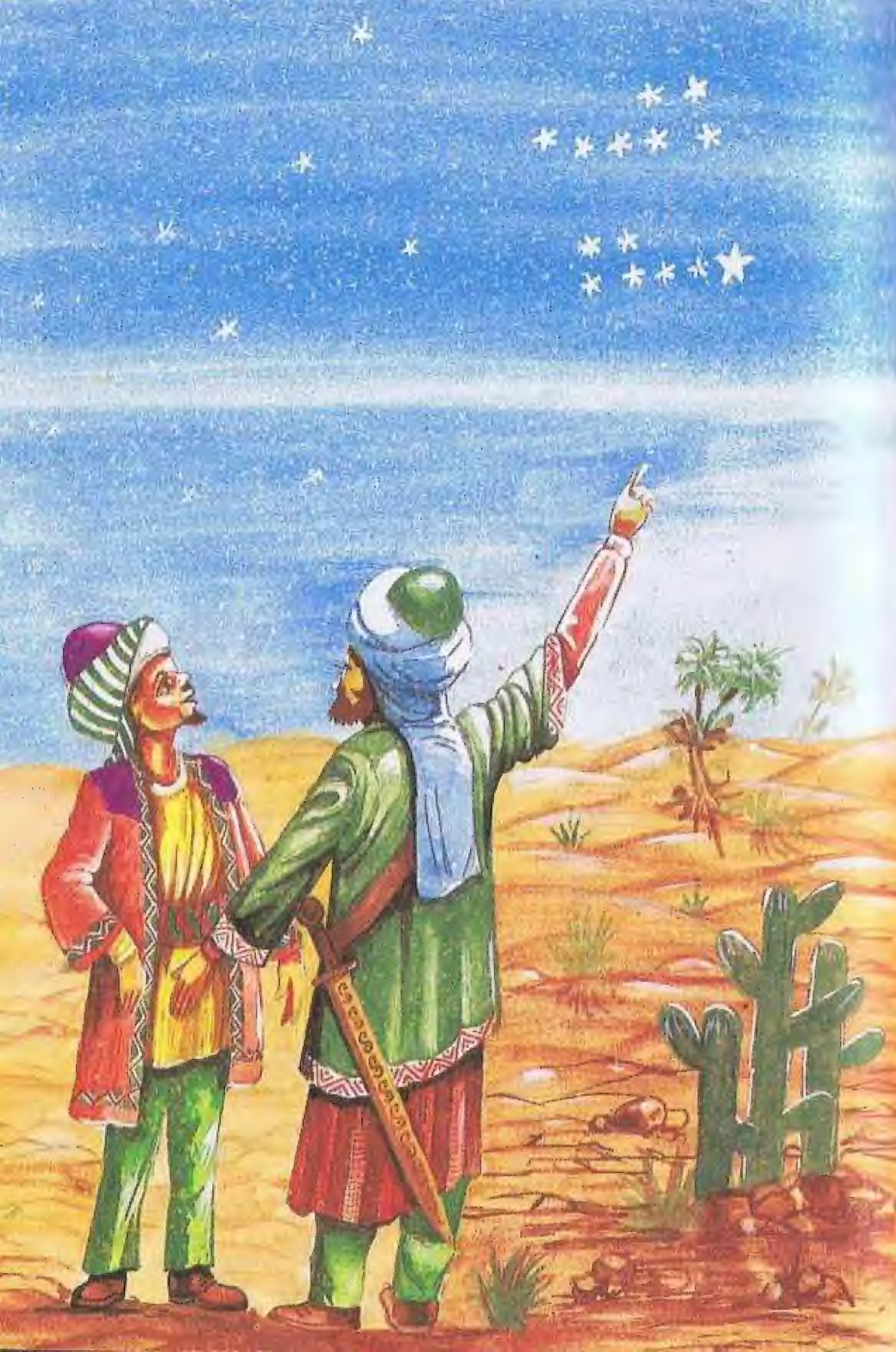


السَّمَاءَ وَنُجُومَهَا ، ثُمَّ أَشَارَ إِلَى إِحْدَى الْجِهَاتِ الْأَرْبَعِ قَائِلًا : « هَذَا هُوَ الشَّمَالُ ، وَسَنَسِيرُ فِي هَذَا الْإِتِّجَاهِ ، فَصِلْ إِلَى غَايَتِنَا بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ يَا ذَنْ اللَّهِ . »

أَدْرَكَ كَرِيمُ الدِّينِ أَنَّ الشَّيْخَ قَدْ حَدَّدَ اتِّجَاهَهُ بِوَسِطَةِ نُجُومِ السَّمَاءِ ، وَهَمَسَ لِنَفْسِهِ : « هَذَا هُوَ مَا كَانَ عَلَيَّ تَعَلُّمُهُ قَبْلَ أَنْ أَبَادِرَ بِالسَّفَرِ ، فَقَدْ كِدْتُ أَدْفَعُ حَيَاتِي ثَمَنًا لِبَهْلِي . »

وَاقْتَرَبَ مِنْ شَيْخِ الْقَافِلَةِ خَجَلًا وَقَالَ : « هَلْ يُمَكِّنُكَ أَنْ تَعْلَمَنِي كَيْفَ دَلَّتْكَ النُّجُومُ عَلَى هَذَا الْإِتِّجَاءِ ؟ »

ابْتَسَمَ الشَّيْخُ ابْتِسَامَةً أَضَاءَتْ وَجْهَهُ ، وَقَالَ : « إِنَّ الْمُسَافِرَ عَبَّرَ الصَّحْرَاءَ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ عَلَى مَعْرِفَةٍ بِعِلْمِ الْفَلَكَ ، وَمُطَّلِعًا عَلَى أَمَاكِنِ النُّجُومِ وَاتِّجَاهَاتِهَا ، وَهُوَ يَسْتَطِيعُ رُؤْيَتَهَا وَتَحْدِيدَ أَمَاكِنِهَا حَتَّى فِي أَشَدِّ اللَّيَالِي حُلُكَةً . إِنَّ نُجُومَ السَّمَاءِ تَنْقَسِمُ إِلَى عِدَّةٍ مَجْمُوعَاتٍ ، وَكُلُّ مَجْمُوعَةٍ مِنْهَا تُشِيرُ لِاتِّجَاهٍ مُعَيَّنٍ . وَهِيَ تَظْهَرُ وَاضِحَةً جَلِيَّةً ، خَاصَّةً فِي اللَّيَالِي الصَّافِيَةِ الَّتِي لَا تَجْتَاخُ فِيهَا الصَّحْرَاءُ الْعَوَاصِفُ أَوْ الْأَتْرَبَةُ ، فَتَبْدُو السَّمَاءُ مِثْلَ كِتَابٍ مَفْتُوحٍ ، تَسْهُلُ قِرَاةُ لِمَنْ يُجِدُّ مَعْرِفَةَ لَعَةِ هَذِهِ النُّجُومِ وَمَجْمُوعَاتِهَا . أَمَّا فِي النَّهَارِ فَإِنَّ حَرَكَةَ الشَّمْسِ تُحَدِّدُ الْإِتِّجَاهَاتِ ، فَهِيَ تُشْرِقُ فِي





جِهَةِ الشَّرْقِ وَتَغْرُبُ فِي الْغَرْبِ . وَعَلَى هَذَا الْإِسَاسِ يُمَكِّنُ تَحْدِيدُ  
جِهَةِ الشَّمَالِ وَالْجَنُوبِ بِسُهُولَةٍ .

وَأَشَارَ الشَّيْخُ إِلَى مَجْمُوعَاتِ مِنَ النُّجُومِ ، وَأَخَذَ يَشْرَحُ لِكَرِيمِ  
الدِّينِ طَبِيعَةَ كُلِّ مِنْهَا ، وَالْأَتَجَاهَ الَّذِي تَتَوَاجَدُ فِيهِ دَائِمًا ؛ فَهَزَّ  
كَرِيمُ الدِّينَ رَأْسَهُ ، وَأَحْسَنَ بِالْأَرْتِيَاكِ لِمَا عَلَّمَهُ لَهُ شَيْخُ الْقَافِلَةِ مِنْ  
مَبَادِي عِلْمِ الْفَلَكَ .

وَفِي مُنْتَصَفِ الْيَوْمِ الثَّالِثِ ، لَاحَتْ أَخِيرًا بُيُوتُ مَدِينَةِ عَظِيمَةٍ  
وَقُصُورُهَا . يَمْتَدُّ خَلْفُهَا شَاطِئُ بَحْرٍ عَظِيمٍ ، بَدَدَتْ تَسْمَاتُهُ حُرَّ  
الصُّحْرَاءِ ، فَقَالَ شَيْخُ الْقَافِلَةِ مُتَهَلِّلًا : « لَقَدْ وَصَلْنَا إِلَى غَايَتِنَا ،  
وَسَنَصِلُ خِلَالَ سَاعَةٍ عَلَى الْأَكْثَرِ إِلَى الْمِينَاءِ . »

عَانَقَ كَرِيمُ الدِّينِ الشَّيْخَ الطَّيِّبَ ، وَقَبَّلَهُ عَلَى جَبِينِهِ ، وَقَالَ لَهُ :  
« شُكْرًا لَكَ أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ ؛ فَقَدْ أَنْقَذْتَ حَيَاتِي وَعَلَّمْتَنِي أَشْيَاءَ  
مُهِّمَةً ، كَثِيرًا مَا حَاوَلْتُ وَالِدِي - رَحِمَهُ اللَّهُ - تَعْلِيمَهَا لِي ، وَلَكِنِّي  
أَعْرَضْتُ عَنْهَا ، دُونَ أَنْ أَدْرِكَ أَهَمِّيَّتَهَا ، وَرَفَضْتُ مُشَارَكَةَ وَالِدِي  
رِحَالَتِهِ وَأَعْمَالَهُ ، دُونَ أَنْ أَدْرِي أَنَّ قِلَّةَ خَبْرَتِي قَدْ يَكُونُ فِيهَا  
هَلَاكِ يَوْمًا مَا . »

سَأَلَهُ شَيْخُ الْقَافِلَةِ : « وَلَكِنَّكَ لَمْ تُخْبِرْنِي ، يَا وَلَدِي ، مَنْ تَكُونُ ؛

فَإِنِّي أَشْعُرُ كَأَنِّي أَعْرِفُكَ . »

فَأَخْبَرَهُ كَرِيمُ الدِّينِ بِاسْمِهِ وَاسْمِ وَالِدِهِ ، فَهَتَفَ شَيْخُ الْقَافِلَةِ  
بِدَهْشَةٍ وَعَدَمِ تَصْدِيقٍ : « أَتَقُولُ إِنَّكَ ابْنُ حَكِيمِ الدِّينِ رَئِيسِ  
التُّجَّارِ ؟ إِنَّ هَذَا يُفَسِّرُ إِحْسَاسِي بِمَعْرِفَتِكَ . »

قَالَ كَرِيمُ الدِّينِ دَهْشًا بِدَوْرِهِ : « وَهَلْ كُنْتُ تَعْرِفُ وَالِدِي -  
رَحِمَهُ اللَّهُ ؟ »

تَأَلَّقَتْ عَيْنَا شَيْخِ الْقَافِلَةِ وَقَدْ عَاوَدَتْهُمَا ذِكْرَى عَزِيزَةٍ غَالِيَةٍ ،  
وَقَالَ : « كَيْفَ لَا أَعْرِفُ رَئِيسَ التُّجَّارِ حَكِيمَ الدِّينِ ؛ وَقَدْ رَافَقْتُهُ فِي  
رِحَالَاتٍ عَدِيدَةٍ إِلَى بِلَادِ الشَّامِ وَالْحِجَازِ وَالْمَغْرِبِ ، وَقَطَعْنَا الْفَيَافِي  
مَعًا ، وَعَبَرْنَا الْبَحَارَ وَتَسَلَّقْنَا الْجِبَالَ ؟ لَقَدْ كَانَ وَالِدُكَ مِنْ أَعَزِّ  
أَصْدِقَائِي ، وَأَمْهَرَ مَنْ قَابَلْتُهُمْ فِي حَيَاتِي . وَكَانَ ذَكِيًّا أَرِيًّا عَالِمًا  
بِأَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ ، وَمَرْجِعًا لَنَا إِذَا مَا اخْتَلَفَتِ الْآرَاءُ ، وَعَلَى يَدَيْهِ  
تَعَلَّمْتُ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً . وَأَنَا مَدِينٌ لَهُ بِحَيَاتِي ؛ فَقَدْ هَاجَمَنِي ذَنْبٌ  
كَاسَرَ فِي الصُّحْرَاءِ ذَاتَ يَوْمٍ ، وَأَثَخَنِي بِالْجِرَاحِ بَعْدَ أَنْ شَتَّتَ شَمْلُ  
الْقَافِلَةِ ، فَعَثَرَ عَلَيَّ وَالِدُكَ وَأَنَا مُصَابٌ مُوشِكٌ عَلَى الْمَوْتِ ، فَدَاوَانِي  
بِأَعْشَابِ التَّقْطِطِهَا مِنْ حَوْلِهِ ، وَكَانَتْ لَهُ دِرَآئَةٌ وَاسِعَةٌ بِفَوَائِدِهَا  
الطَّبِيبَةِ ، فَأَنْقَذَنِي مِنْ مَوْتٍ مُحَقَّقٍ . »



وَتَأْمَلُ الشَّيْخُ كَرِيمُ الدِّينِ فِي دَهْشَةٍ لَا تَخْفَى ، وَقَالَ لَهُ : « وَلَكِنْ  
كَيْفَ تَقُولُ إِنَّكَ ابْنُ رَئِيسِ التُّجَّارِ حَكِيمِ الدِّينِ - رَحِمَهُ اللَّهُ -  
وَأَنْتَ تَجْهَلُ أَبْسَطَ الْأَشْيَاءِ وَالْمَعَارِفِ وَالْعُلُومِ ؟ »

نَكَّسَ كَرِيمُ الدِّينِ رَأْسَهُ فِي خَجَلٍ ، وَلَمْ يَذَرْ بِمَاذَا يُجِيبُ .

وَحَاوَلَ كَرِيمُ الدِّينِ أَنْ يَنْقُذَ شَيْخَ الْقَافِلَةِ أَجْرَةَ سَفَرِهِ ، وَلَكِنْ  
الشَّيْخُ قَالَ لَهُ : « وَفَرُّ نَفُودَكَ ، يَا وَلَدِي ؛ فَقَدْ تَحْتَاجُ إِلَيْهَا فِي  
رَحْلَتِكَ ، وَيَكْفِي أُنْكَ ابْنُ صَدِيقِي رَئِيسِ التُّجَّارِ - رَحِمَهُ اللَّهُ .  
فَمَا قَدَمْتَهُ لَكَ مِنْ مَعْرُوفٍ لَا يُسَاوِي شَيْئًا مِمَّا قَدَّمْتَهُ لِي وَالِدُكَ مِنْ  
خَيْرٍ وَمُسَاعَدَةٍ . »

شَكَرَهُ كَرِيمُ الدِّينِ وَاتَّجَهَ إِلَى الْمِينَاءِ . وَشَاهَدَ سَفِينَةً تَوَشَّكُ عَلَى  
الْإِقْلَاعِ وَغُبُورِ بَحْرِ الْعَوَاصِفِ ، فَاقْتَرَبَ مِنْ رَبَّانِهَا وَقَالَ لَهُ : « هَلْ  
تَسْمَحُ لِي بِغُبُورِ الْبَحْرِ فَوْقَ سَفِينَتِكَ ، يَا سَيِّدِي ، وَسَأَنْقُذُكَ مِنَ الْمَالِ  
مَا تَشَاءُ ؟ »

وَأَفَقَ الرُّبَّانُ بَعْدَ أَنْ اتَّفَقَا عَلَى أَنْ يَدْفَعَ كَرِيمُ الدِّينِ مِئَةَ دِينَارٍ  
ذَهَبًا .

وَصَعِدَ كَرِيمُ الدِّينِ إِلَى السَّفِينَةِ الَّتِي أُرْسِلَتْ أَشْرَعَتَهَا ،  
وَابْتَحَرَتْ تَدْفَعُهَا الرِّيحُ الْقَوِيَّةُ .

وَأَسْتَمَرَّتِ السَّفِينَةُ فِي إِبْحَارِهَا أَيَّامًا طَوِيلَةً ، وَكَرِيمُ الدِّينِ يَشْعُرُ  
بِغَثَيَانٍ شَدِيدٍ بِسَبَبِ عَدَمِ اعْتِيَادِهِ رُكُوبَ الْبَحْرِ ، فَلَزِمَ قَمَرَتَهُ نَائِمًا  
طَوَالَ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ ، حَتَّى صَارَ مَوْضِعًا لِسُخْرِيَةِ الْبَحَّارَةِ وَالرُّكَّابِ ،  
وَمَادَّةً لِنَدْرِهِمْ . وَلَكِنَّهُ لَمْ يَهْتَمَّ ؛ فَقَدْ كَانَ كُلُّ مَا يَشْغَلُهُ هُوَ  
الْوُصُولُ إِلَى الشَّاطِئِ فِي أَسْرَعِ وَقْتٍ .



على نفسه وحاول استعادة توازنه وفتح الباب ، فتمكن من ذلك بعد مشقة ، واندفع الربان إلى الداخل في غضب شديد ، وصاح في كريم الدين :

« ماذا تفعل هنا أيها الأحمق الجبان ؟ هل تخبيّ داخل قمرتك ونحن جميعاً نصارع العاصفة ؟ »

أجابه كريم الدين : « ماذا باستطاعتي أن أفعله ؟ فأنا أجهل كل ما يتعلق بالبحر ، ويمكنني بدلاً من مشاركتكم إنقاذ السفينة ومصارعة العاصفة ، أن أدفع مئة دينار ذهباً ، لمن يقوم بهذا العمل بدلاً مني . »

صرخ فيه الربان : « هل أنت معتوه أيها الشاب ؟ وبماذا سيفيد ذهبك إذا غرقت السفينة بمن فيها ؟ هيا أيها الجبان اصعد إلى سطح السفينة ، وشارك بحارتها وركابها في إنقاذها ، وإلا ألقيت بك في قلب البحر الهائج ، فتكون أول الضحايا ! »

خاف كريم الدين ، واتجه إلى سطح السفينة . وما إن برز رأسه لأعلى ، حتى لطمته موجة عاتية من المياه ألقتة لأسفل مرة أخرى ، فشج رأسه ، وسالت دماؤه ، ولكنه تحامل على نفسه وتشبث بدرازين السلم جيداً ، وصعد إلى سطح السفينة متألماً ، يعاني من

## الفصل الثالث

### العاصفة الرهيبة

استيقظ كريم الدين ذات مساء على أصوات ارتطام عنيف ، فألقى نظرة مدعورة من نافذة قمرته إلى الخارج ؛ فشاهد أمواجاً هائلة عالية وهي تضرب جوانب السفينة في عنف بالغ ، وتوشك على تحطيمها ، والسماة قد كستها سحب سوداء قاتمة ، تلقى بمطر كالسيل ، وتتفجر في وسطها عواصف البرق .

ارتعب كريم الدين وانكمش مكانه ، وأحس بالسفينة تميل بشدة جهة اليمين ، حتى أوشك أن يسقط من فوق فراشه ؛ فتشبث به ، ولكن السفينة مالت للناحية الأخرى بعته . فسقط كريم الدين من فراشه ، ثم مالت جهة اليسار ، فتدحرج نحو باب القمرة .

وفي الوقت نفسه دق الباب بعنف شديد ، فتحامل كريم الدين



الدَّوَارِ وَالْأَمِّ رَأْسِهِ الْجَرِيحِ . وَ وَقَفَ مَكَانَهُ فِي ذُهُولٍ مِنْ عُنْفِ  
العاصِفَةِ الَّتِي لَمْ يَشَاهِدْ مِثْلَهَا فِي حَيَاتِهِ .

كَانَتِ الْعَاصِفَةُ عَلَى أَشَدِّهَا ، كَأَنَّمَا انْفَتَحَتْ أَبْوَابُ الْجَحِيمِ ،  
فَالْمَوْجُ قَدْ زَادَ ارْتِفَاعَهُ عَلَى عَشْرَةِ أَمْتَارٍ ، وَصَارَ يَلْطِمُ سَطْحَ السَّفِينَةِ  
وَجَوَانِبَهَا كَأَنَّهُ شَيْطَانٌ مَجْنُونٌ .

وَرَا حَتِ الرِّيحُ تَدْفَعُ بِصَوَارِي السَّفِينَةِ وَتَلْهَوُ بِهَا كَأَنَّمَا عِيدَانُ  
كِبْرِيَةٍ ، وَقَدْ مَزَقَتْ بَعْضَ أَشْرَعَتِهَا وَأَطَاحَتْ بِجُزْءٍ مِنْ إِفْرِيزِ مُقَدِّمَةِ  
السَّفِينَةِ ، فَانْدَفَعَتِ الْمِيَاهُ خِلَالَ الْجُزْءِ الْمُحْطَمِ إِلَى قَلْبِ السَّفِينَةِ  
لِتَغْرُقَ مِنْ فِيهَا .

وَحَاوَلَ الْبَحَّارَةُ وَرُكَّابُ السَّفِينَةِ نَزْحَ الْمِيَاهِ مِنَ السَّطْحِ بِدَلَائِهِمْ ،  
وَالْقَاءَهَا إِلَى الْيَمِّ الثَّانِيَةِ ، وَلَكِنْ مُحَاوَلَاتِهِمْ كَانَتْ تَبْدُو  
مَحْكُومًا عَلَيْهَا بِالْفَشْلِ ؛ لِشِدَّةِ انْدِفَاعِ الْمِيَاهِ إِلَى سَطْحِ السَّفِينَةِ ،  
وَهِيَ تَجْرِفُ كُلَّ شَيْءٍ فِي طَرِيقِهَا .

وَتَسْلُقُ أَحَدُ الْبَحَّارَةِ الشَّرَاعَ الْكَبِيرَ لِيُسَلِّمَهُ وَيُلْفَ الْجِبَالَ حَوْلَهُ ،  
حَتَّى لَا تُمَزِّقَهُ الرِّيحُ أَوْ يَتَسَبَّبَ فِي غَرَقِ السَّفِينَةِ . وَانْدَفَعَ كَرِيمُ  
الدِّينِ إِلَى سَطْحِ السَّفِينَةِ وَقَدْ تَضَاعَفَ إِحْسَاسُهُ بِالْغَثَيَانِ ، وَلَكِنَّهُ  
تَعَلَّبَ عَلَيْهِ ، وَالتَّقَطَّ دَلُّوًا رَاحَ يَنْزَحُ بِهِ الْمَاءَ مِنَ السَّطْحِ إِلَى قَلْبِ  
الْمَاءِ .





وَقَاوَمَ لَطَمَ الرِّيحِ وَعَنَّفَ الْأَمْوَاجَ وَهُوَ يُوَاصِلُ عَمَلَهُ . وَشَاهَدَ دَفَّةَ السُّفِينَةِ وَالْأَمْوَاجَ تَكَادُ تَهْتِكُهَا وَتَنْزِعُهَا مِنْ مَكَانِهَا ، فَأَنْدَفَعَ إِلَيْهَا وَتَشَبَّثَ بِهَا مُحَاوِلًا حِمَايَتَهَا بِجَسَدِهِ ، مُتَحَمِّلًا لَطَمَ الْأَمْوَاجِ لَهُ ، وَعَنَّفَ الرِّيحَ الَّتِي أَوْشَكَتْ أَنْ تُلْقِيَ بِهِ مِنْ مَكَانِهِ ، وَتَطْوَحَهُ فِي وَكَانَهُ رِيثَةً .

وَاشْتَدَّتْ الرِّيحُ فَأَنْقَطَعَتْ حِبَالُ الشَّرَاعِ الْكَبِيرِ ، وَانْبَسَطَ فِي حَرَكَةٍ مُفَاجِئَةٍ ، فَمَالَتِ السُّفِينَةُ عَلَى جَانِبِهَا ، وَأَوْشَكَتْ عَلَى الْغَرَقِ بِسَبَبِ شِرَاعِهَا الْمُنْبَسِطِ .

وَصَرَخَ الرُّبَانُ فِي الْبَحَارَةِ : « لِيُحَاوِلْ أَحَدُكُمْ تَسْلُقَ الصَّارِي وَتَمَزِيقَ الْأَشْرَعَةَ ، وَإِلَّا أَعْرَقَتِ الرِّيحُ السُّفِينَةَ . »

أَنْدَفَعَ عَدَدٌ مِنَ الْبَحَارَةِ إِلَى الصَّارِي ، وَلَكِنْ الرِّيحُ الشَّدِيدَةُ لَمْ تُمْكِنَهُمْ مِنْ بُلُوغِهِ ، وَدَفَعَتْهُمْ فِي عَنَّفٍ ، فَأَلْقَتْ بَعْضَهُمْ إِلَى حَاجِزِ السُّفِينَةِ فَاصْطَدَمُوا بِهِ ، أَمَّا الْبَعْضُ الْآخِرُ فَكَانَ أَسْوَأَ حَظًّا ؛ إِذْ قَدَفَتْ بِهِمُ الرِّيحُ إِلَى قَلْبِ الْمَوْجِ الثَّائِرِ ، فَابْتَلَعَهُمْ فِي جَوْفِهِ ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أَنْقَادَهُمْ .

وَمَالَتِ السُّفِينَةُ بِشِدَّةٍ نَاحِيَةَ الْجِهَةِ الْيُمْنَى ، وَأَوْشَكَتْ عَلَى الْغَرَقِ . وَبَاءَتْ كُلُّ جُهْدٍ بَقِيَّةَ الْبَحَارَةِ لِلْوُصُولِ إِلَى مَكَانِ الشَّرَاعِ بِالْفَشْلِ ؛ فَصَرَخَ الرُّبَانُ كَالْمَجْنُونِ : « سَوْفَ نَغْرُقُ ! لَمْ نَعُدْ ثَمَّةَ وَسِيلَةَ لِلنَّجَاةِ ! »

٣٠ ص ٣١

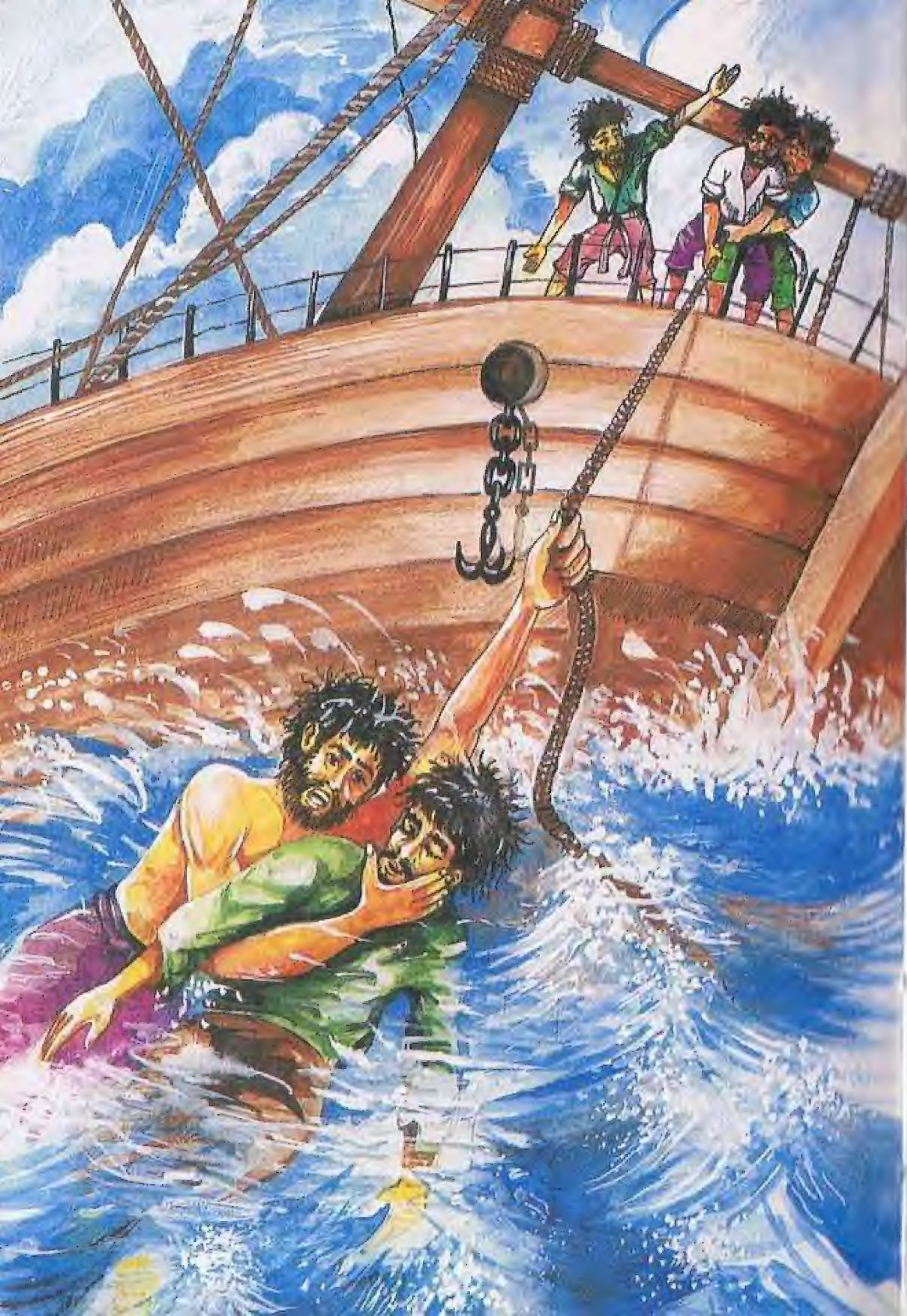
وَدَقَّ قَلْبُ كَرِيمِ الدِّينِ بِعَنَّفٍ شَدِيدٍ . كَانَ مَكَانُهُ أَمَامَ الدَّفَّةِ قَرِيبًا مِنْ صَارِي الشَّرَاعِ الْكَبِيرِ ، وَكَانَ مِنَ الْيَسِيرِ عَلَيْهِ بُلُوغُهُ دُونَ الْآخَرِينَ ، وَلَكِنَّهُ تَرَدَّدَ فِي الْمَخَاطَرَةِ ، وَصَرَخَ الرُّبَانُ فِي كَرِيمِ الدِّينِ : « أَنْتَ أَيُّهَا الشَّابُّ ، إِنَّ حَيَاتِنَا وَحَيَاتَكَ مُعَلَّقَةٌ بَيْنَ يَدَيْكَ ، فَاسْرِعْ بِتَسْلُقِ الصَّارِي وَتَمَزِيقِ حِبَالِ الشَّرَاعِ لِفَصْلِهِ عَنِ الصَّارِي ، قَبْلَ أَنْ يَفُوتَ الْأَوَانُ . »

لَمْ يَكُنْ لِكَرِيمِ الدِّينِ خِبْرَةٌ فِي تَسْلُقِ الصَّوَارِي ، وَلَكِنَّهُ حَزَمَ أَمْرَهُ وَاسْتَجْمَعَ شَجَاعَتَهُ وَحَاوَلَ الْوُصُولَ إِلَى الصَّارِي ، وَلَكِنْ الرِّيحُ أَلْقَتْ بِهِ بِعَنَّفٍ لِلْخَلْفِ . وَكَرَّرَ الْمَحَاوِلَةَ وَتَشَبَّثَ بِالصَّارِي فِي اللَّحْظَةِ الْآخِرَةِ ، وَالرِّيحُ تَكَادُ تَطْيَحُ بِهِ فِي الْهَوَاءِ كَذَرَّةِ غُبَارٍ لَا وَزْنَ لَهَا ، وَلَكِنَّهُ تَشَبَّثَ بِالصَّارِي أَكْثَرَ ، وَرَاحَ يَتَسَلَّقُهُ فِي بَطْنِهِ ، وَقَدْ أَعْمَضَ عَيْنَيْهِ ؛ حَتَّى لَا تَرَاهُ الْعَاصِفَةُ الْعَاتِيَةُ ، وَالْأَمْوَاجُ الْمُتَلَاطِمَةُ الَّتِي أَعْرَقَتْهُ . وَتَعَلَّقَتْ بِهِ أَبْصَارُ الْبَحَارَةِ وَالرُّكَّابِ وَهُوَ يَتَسَلَّقُ الصَّارِي بِبَطْنِهِ ؛ فَقَدْ كَانَ أَمْلَهُمْ الْآخِرَ فِي الْحَيَاةِ .

وَتَسَلَّخَتْ يَدَا وَقَدَمَا كَرِيمِ الدِّينِ ، وَأَوْشَكَ أَنْ يَهْوِيَ مِنْ مَكَانِهِ مِرَارًا ، وَلَكِنَّهُ وَاصَلَ التَّسْلُقَ حَتَّى بَلَغَ آخِرَ مَوْضِعِ الْحِبَالِ الَّتِي تَشَبَّثَ الشَّرَاعُ إِلَى الصَّارِي ، وَاکْتَشَفَ أَنَّهُ لَا يَحْمِلُ أَيَّ سِلَاحٍ يَمِزُقُ بِهِ الْحِبَالَ ؛ فَأَخَذَ يَقْطَعُهَا بِيَدَيْهِ وَأَسْنَانِهِ وَبِكُلِّ مَا تَبَقِيَ لَهُ مِنْ قُوَّةٍ .

وَتَنَبَّهَ الرُّبَانُ لِمَا يَحْدُثُ فَصَاحَ فِي كَرِيمِ الدِّينِ : « هَا هِيَ ذِي





سَكِنِي أَيُّهَا الشَّابُّ الشُّجَاعُ .

وَطَوَّحَ بِسَكِينِهِ الْكَبِيرَةِ فَطَارَتْ فِي الْهَوَاءِ ، ثُمَّ انْغَرَزَتْ فِي الصَّارِي ، بَيْنَ أَصَابِعِ كَرِيمِ الدِّينِ الْمُنْشَبَةِ بِهِ .

جَذَبَ كَرِيمُ الدِّينِ السَّكِينَ وَهَوَى بِهَا فَوْقَ الْجِبَالِ السَّمِيكَةِ ، وَفِي اللَّحْظَةِ التَّالِيَةِ تَمَزَّقَتِ الْجِبَالُ وَانْزَاخَتْ عَنْ مَوْضِعِهَا ، وَلَمْ يَعْذُ هُنَاكَ مَا يُثَبِّتُ الشَّرَاعَ بِالصَّارِي ، فَدَفَعَتْهُ الرِّيحُ بَعِيدًا . وَفِي الْحَالِ اعْتَدَلَتِ السَّفِينَةُ بِحَرَكَةٍ عَنيفَةٍ ، فَاخْتَلَّ تَوَازُنُ كَرِيمِ الدِّينِ ، وَهَوَى لِأَسْفَلِ فِي قَلْبِ الْأَمْوَاجِ الْمُتَلَاطِمَةِ .

ارْتَطَمَ كَرِيمُ الدِّينِ بِالْمِيَاهِ فِي عُنْفٍ ، فَصَرَخَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ : « إِنِّي لَا أَعْرِفُ السَّبَاحَةَ ! سَوْفَ أَغْرُقُ ! لِيُنْقِذْنِي أَحَدُكُمْ . »

هَتَفَ الرُّبَّانُ : « هَذَا الشَّابُّ الشُّجَاعُ يَجِبُ أَلَّا يَمُوتَ . »

وَرَمَى بِنَفْسِهِ فِي قَلْبِ الْمِيَاهِ مُخَاطِرًا ، وَانْدَفَعَ سَابِحًا بِكُلِّ قُوَّتِهِ ، وَانْدَفَعَتْ مَوْجَةٌ هَائِلَةٌ ابْتَلَعَتْ كَرِيمَ الدِّينِ فِي جَوْفِهَا ، فَغَاصَ الرُّبَّانُ دَاخِلُهَا ، وَلَمَحَ كَرِيمُ الدِّينِ فَاقِدًا وَعِيَهُ ، وَقَدْ أَوْشَكَتْ دَوَامَةٌ عَلَى اخْتِطَافِهِ فِي قَلْبِهَا ، فَسَبَّحَ إِلَيْهِ بِقُوَّةٍ ، وَأَمْسَكَ بِهِ فِي اللَّحْظَةِ الْأَخِيرَةِ ، وَرَفَعَهُ عَالِيًا فَوْقَ سَطْحِ الْمَاءِ .

وَأَلْقَى الْبَحَّارَةُ بِحَبْلِ مِنْ فَوْقِ السَّفِينَةِ إِلَى الرُّبَّانِ ، فَتَشَبَّثَ بِهِ وَهُوَ يَجْذِبُ كَرِيمَ الدِّينَ مَعَهُ ، ثُمَّ حَمَلَهُ فَوْقَ كَتِفِهِ ، وَأَخَذَ يَصْعَدُ بِالْحَبْلِ إِلَى سَطْحِ السَّفِينَةِ ، فَلَبَّغَهُ بَعْدَ مَشَقَّةٍ . وَأَخَذَ يَفْرِغُ الْمَاءَ



الَّذِي شَرِبَهُ كَرِيمُ الدِّينِ ، بِالضَّغْطِ عَلَى بَطْنِهِ ، فَتَمَكَّنَ مِنْ إِنْقَاذِهِ .  
وَهَذَاتِ الْعَاصِفَةُ بَعْدَ قَلِيلٍ وَصَفَا الْجَوُّ ، فَحَمَلَ الْبَحَّارَةُ كَرِيمُ  
الدِّينِ إِلَى حُجْرَتِهِ ، ثُمَّ انْشَغَلُوا بِاصْلَاحِ مَا تَلَفَ فِي السَّفِينَةِ .

وَأَفَاقَ كَرِيمُ الدِّينِ فِي الْمَسَاءِ ، فَوَجَدَ نَفْسَهُ مُمَدِّدًا فِي قَمَرَتِهِ .  
وَتَذَكَّرَ مَا جَرَى ، وَسَقُوطَهُ فِي قَلْبِ الْيَمِّ مِنْ فَوْقِ صَارِي السَّفِينَةِ ،  
فَتَسَاءَلَ بِدَهْشَةٍ كَيْفَ تَمَكَّنَ مِنَ النِّجَاةِ فِي مِثْلِ تِلْكَ الظُّرُوفِ ؟  
وَكَيْفَ ظَلَّتِ السَّفِينَةُ طَافِيَةً فَوْقَ الْمَاءِ وَلَمْ تَغْرُقْ ، بِالرَّغْمِ مِنْ  
الْعَاصِفَةِ الْعَاتِيَةِ ؟

وَدَقَّ الْبَابُ بَعْدَ قَلِيلٍ وَدَخَلَ الرَّبَّانُ ، وَقَالَ مُتَهَلِّلًا لِكَرِيمِ  
الدِّينِ : « حَمْدًا لِلَّهِ عَلَى أَنَّكَ اسْتَعَدْتَ وَعَيْكَ ؛ فَقَدْ خَشِيتُ أَنْ  
يَكُونَ الْمَاءُ الَّذِي ابْتَلَعْتَهُ فِي الْبَحْرِ قَدْ سَبَّبَ لَكَ ضَرَرًا لَا تُفِيْقُ مِنْهُ  
أَبَدًا . »

سَأَلَهُ كَرِيمُ الدِّينِ دَهْشًا : « مَنْ الَّذِي أَنْقَذَنِي مِنَ الْغَرَقِ فِي مِثْلِ  
هَذَا الطُّفْسِ الْعَاصِفِ ؟ »

أَجَابَهُ الرَّبَّانُ : « أَنَا أَنْقَذْتُكَ ، وَلَكِنِّي أَتَعَجَّبُ كَيْفَ يَجْهَلُ  
شَابٌّ مِثْلَكَ السَّبَّاحَةَ ، وَهِيَ مِنَ الْمَهَارَاتِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ يَتَعَلَّمَهَا  
كُلُّ إِنْسَانٍ ، خَاصَّةً مَنْ تَضَطَّرُّهُ الظُّرُوفُ لِعُبُورِ الْبَحَارِ ؟ »

نَكَّسَ كَرِيمُ الدِّينِ رَأْسَهُ خَجَلًا وَقَالَ : « إِنَّ الظُّرُوفَ لَمْ تَضْطَرَّنِي  
مِنْ قَبْلُ لِلسَّفَرِ بِالْبَحْرِ ، وَلَمْ أَهْتَمَّ قَطُّ بِتَعَلُّمِ السَّبَّاحَةِ بِرَّغْمِ مَا بَدَّلَهُ  
وَالِدِي - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي هَذَا الشَّانِ . وَلَكِنِّي أَعْرَضْتُ عَنْ  
التَّعَلُّمِ أَوْ مُشَارَكَةِ وَالِدِي رِحَالَتِهِ ، وَأَنَا أَظُنُّ أَنِّي لَنْ أَحْتَاجَ إِلَى  
هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ أَبَدًا . »

قَالَ الرَّبَّانُ بِاسِمًا : « سَوْفَ أَعْلَمُكَ السَّبَّاحَةَ ، فَهَذَا هُوَ أَقْلُ مَا  
أَقْدَمَهُ لَكَ ، بَعْدَ أَنْ أَنْقَذْتَ السَّفِينَةَ وَمَنْ فِيهَا بِشَجَاعَتِكَ . »

وَفِي الصَّبَاحِ انْتَهَى بَحَّارَةُ السَّفِينَةِ مِنْ تَرْمِيمِ مَا حَلَّ بِهَا  
وَاصْلَاحِهِ بِقَدْرِ مَا يَسْتَطِيعُونَ ؛ انْتِظَارًا لَوْصُولِهِمْ إِلَى الشَّاطِئِ .  
وَعَهْدَ الرَّبَّانِ إِلَى اثْنَيْنِ مِنْ أَمَهِرِ الْبَحَّارَةِ ، بِتَعْلِيمِ كَرِيمِ الدِّينِ  
السَّبَّاحَةَ أَثْنَاءَ تَوَقُّفِ السَّفِينَةِ أَمَامَ بَعْضِ الْجُزُرِ النَّائِيَةِ ، الَّتِي يَسْكُنُهَا  
أَقْوَامٌ بُدَائِيُونَ ، فَكَانُوا يَحْصُلُونَ مِنْهَا عَلَى الطَّعَامِ وَالْفَوَاكِهِ  
وَالْخَضِرَاوَاتِ وَالْمَاءِ ، مُقَابِلَ مَا يَمْنَحُونَهُ لِسُكَّانِ هَذِهِ الْجُزُرِ مِنْ  
أَقْمِشَةٍ زَاهِيَةٍ ، وَعُقُودٍ مِنَ الْخَزْرِ الْمَلُونِ كَانَتْ تَبْهَرُ الْبُدَائِيَّينَ كَثِيرًا .  
وَانْتَهَزَ كَرِيمُ الدِّينِ فُرْصَةً تَوَقُّفِ السَّفِينَةِ بَعْضَ الْوَقْتِ عَلَى شَوَاطِئِ  
هَذِهِ السُّفُنِ ، وَرَاحَ يَتَعَلَّمُ السَّبَّاحَةَ وَالْغَوْصَ ، فَأَجَادَهُمَا خِلَالَ وَقْتٍ  
قَصِيرٍ بِفَضْلِ مُعَلِّمِيهِ الْمَاهِرِينَ .



سَأَلَ كَرِيمُ الدِّينِ الرَّبَّانُ : « لِمَاذَا سَمَوْا هَذَا الْبَحْرَ بِبَحْرِ

الْعَوَاصِفِ ؟ »

أَجَابَهُ الرَّبَّانُ : « لِأَنَّ هَذَا الْبَحْرَ بِالذَّاتِ يَشْتَهَرُ بِهَبُوبِ  
الْعَوَاصِفِ فَوْقَهُ فِي أَوْقَاتٍ مُعَيَّنَةٍ مِنَ الْعَامِ ، وَعَلَى كُلِّ بَحَارٍ وَرَبَّانٍ  
أَنْ يَعْرِفَهَا لِكَيْ يَتَجَنَّبَهَا ؛ فَهِيَ عَوَاصِفٌ مُدْمِرَةٌ ، لَا تَتْرُكُ شَيْئًا  
طَافِيًا دُونَ إِغْرَاقِهِ . وَمِنْ سَيِّئَاتِ هَذَا الْبَحْرِ أَنَّ بَعْضَ الْعَوَاصِفِ فِيهِ  
قَدْ تَهَبُّ فِي غَيْرِ مَوَاعِيدِهَا ، مِثْلَ الْعَاصِفَةِ الَّتِي هَبَّتْ عَلَيْنَا  
بِالْأَمْسِ . »

سَأَلَ كَرِيمُ الدِّينِ : « هَلْ تُحَدِّدُونَ اتِّجَاهَ السُّفِينَةِ بِوَاسِطَةِ النُّجُومِ

أَيْضًا ؟ »

أَجَابَ الرَّبَّانُ : « لَيْسَ دَائِمًا ، بِسَبَبِ هُبُوبِ الرِّيحِ وَسُقُوطِ  
الْأَمْطَارِ الَّتِي تَمْنَعُ رُؤْيَا النُّجُومِ ؛ وَلِذَلِكَ نَسْتَخْدِمُ الْبُوصْلَةَ  
وَالْأَسْطُرْلَابَ دَائِمًا فِي مَعْرِفَةِ الْإِتِّجَاهِ ؛ فَالْبُوصْلَةُ تُشِيرُ إِلَى جِهَةِ  
الشَّمَالِ دَائِمًا ، وَإِذَا مَا عَرَفْنَا هَذَا الْإِتِّجَاهَ بِالذَّاتِ أَمَكَّنَّا تَحْدِيدَ  
بَقِيَّةِ الْإِتِّجَاهَاتِ بِسُهُولَةٍ . »

وَأَخَذَ الرَّبَّانُ يَشْرَحُ لِكَرِيمِ الدِّينِ أَسْرَارَ الْبَحْرِ وَالْعَوَاصِفِ  
وَالسُّفُنِ ، وَطَبِيعَةَ الْمَوَائِجِ وَالْجُزُرِ وَالْبِلَادِ الَّتِي تَمُرُّ بِهَا السُّفُنُ ،

وَمَوَاعِيدَ هُبُوبِ الرِّيحِ وَالْأَنْوَاءِ ، وَكَرِيمُ الدِّينِ يَسْتَمِعُ إِلَيْهِ صَامِتًا  
مُتَّقِظًا .

وَأَخِيرًا لَاحَ الشَّاطِئُ مِنْ بَعِيدٍ ، فَتَهَلَّلَ الْبَحَّارَةُ وَصَاحُوا قَرَحِينَ  
لِوُصُولِهِمْ سَالِمِينَ . وَفَاضَتْ عَيْنَا كَرِيمِ الدِّينِ بِالدُّمُوعِ لِبُلُوغِهِ  
الشَّاطِئَ فِي أَمَانٍ ، بَعْدَ أَنْ حَسِبَ أَنَّهُ لَنْ يَطَأَ الْأَرْضَ ثَانِيَةً . وَتَأَمَّلَهُ  
الرَّبَّانُ قَلِيلًا ثُمَّ سَأَلَهُ : « إِنَّكَ تُشَبِّهُ صَدِيقًا عَزِيزًا كَانَ مِنْ أَخْلَصِ مَنْ  
عَرَفْتَهُمْ فِي حَيَاتِي ؛ فَأَخْبِرْنِي مَنْ تَكُونُ أَيُّهَا الشَّابُّ ؛ لِأَتَحَقَّقَ مِنْ  
ظَنُونِي . »

أَجَابَهُ كَرِيمُ الدِّينِ : « إِنِّي ابْنُ رَئِيسِ التُّجَّارِ الرَّاحِلِ ، حَكِيمِ

الدِّينِ . »

دَهَشَ الرَّبَّانُ وَقَالَ : « إِذَا فَقَدْ صَحَّ ظَنِّي ؛ فَأَنْتَ ابْنُ صَدِيقِي  
الْعَزِيزِ حَكِيمِ الدِّينِ - رَحِمَهُ اللَّهُ . وَلَكِنِّي أَتَعَجَّبُ ! لَقَدْ كَانَ  
وَالِدُكَ مَلَاحًا مَاهِرًا وَرَبَّانًا عَظِيمًا ، لَمْ تَشْهَدْ الْبَحَارَ مَنْ هُوَ فِي مِثْلِ  
عِلْمِهِ وَخَبْرَتِهِ بِالْبَحْرِ وَالرِّيحِ ، وَطَرِيقِ الْمِلَاحَةِ ، وَمَوَاقِعِ الشَّوْاطِئِ ،  
وَمَوَاعِيدِ هُبُوبِ الْعَوَاصِفِ وَالْأَنْوَاءِ ، وَكَانَ غَوَاصًا مَاهِرًا وَسَبَّاحًا  
عَظِيمًا . وَكَانَتْ بَدَايَةُ صَدَاقَتِنَا - ذَاتَ يَوْمٍ - عِنْدَمَا كَانَ مُسَافِرًا  
فَوْقَ ظَهْرِ سَفِينَتِي ، وَكَانَتْ تُرَافِقُنِي فِي رِحْلَتِي طِفْلَتِي الصَّغِيرَةَ ،



فَلَمَّا هَبَّتِ الْأَعَاصِيرُ حَطَمَتِ السَّفِينَةَ وَبَعَثَتْهَا إِلَى أَلْفِ قِطْعَةٍ ،  
فَتَعَلَّقَ كُلُّ مَنَا بِقِطْعَةٍ خَشْيَةً . وَلَمَحَتْ ابْنَتِي وَهِيَ تُقَاوِمُ الْغَرَقَ ،  
وَسَمَكَةٌ قِرْشٍ مُخِيفَةٌ تَنْدَفِعُ إِلَيْهَا ، فَهَبْتُ مَكَانِي وَلَمْ أَتِمَّكُنْ مِنْ  
الْحَرَكَةِ لِإِنْقَادِهَا ، وَلَكِنَّ وَالِدَكَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - انْدَفَعَ سَابِحًا إِلَى  
سَمَكَةِ الْقِرْشِ ، وَأَخَذَ يَطْعُنُهَا بِسِكِّينِهِ حَتَّى قَتَلَهَا ، وَحَمَلَ ابْنَتِي  
فَوْقَ ظَهْرِهِ ، وَسَبَّحَ بِهَا طَوَالَ اللَّيْلِ إِلَى أَنْ وَصَلَ بِهَا الشَّاطِئَ  
سَالِحًا .

وَفَاضَتْ عَيْنَا الرُّبَانَ بِالدُّمُوعِ لِلذِّكْرِى ، ثُمَّ اسْتَعَادَ مَرَحَهُ  
وَالْتَفَتَ إِلَى كَرِيمِ الدِّينِ ، مُوَاضِلًا حَدِيثَهُ فِي صَوْتٍ مُؤَثِّرٍ : « لَقَدْ  
كَانَ وَالِدُكَ بَطْلًا لَا يَهَابُ شَيْئًا فِي الْأَرْضِ وَالْبَحْرِ ، فَكَيْفَ يَكُونُ  
ابْنُهُ الْوَحِيدُ جَاهِلًا عَاطِلًا مِنْ كُلِّ عِلْمٍ أَوْ مَعْرِفَةٍ أَوْ خَبْرَةٍ بِالْبَحْرِ ؟ »  
نَكَّسَ كَرِيمُ الدِّينِ رَأْسَهُ فِي إِحْسَاسٍ شَدِيدٍ بِالْخَجَلِ ، وَلَمْ يَرُدَّ .  
وَعِنْدَمَا حَاوَلَ أَنْ يَنْقُذَ الرُّبَانَ أَجْرَةً سَفَرِهِ ، رَفَضَ الرُّبَانُ قَائِلًا :  
« يَكْفِيكَ أَنْتَ ابْنُ صَدِيقِي الْحَمِيمِ ، رَحِمَهُ اللَّهُ ؛ فَكَيْفَ تُرِيدُنِي أَنْ  
أَتَقَاضِيَ مِنْكَ أَجْرًا أَوْ مَالًا ؟ »

## الفصل الرابع العصابة

غَادَرَ كَرِيمُ الدِّينِ السَّفِينَةَ إِلَى الشَّاطِئِ بَعْدَ أَنْ وَدَّعَ الرُّبَانَ .  
وَتَوَقَّفَ مُتَعَجِّبًا وَهُوَ يَتَأَمَّلُ السُّورَ الْعَظِيمَ الْهَائِلَ ، الَّذِي يُحِيطُ  
بِالْمَدِينَةِ إِحَاطَةً السُّورِ بِالْمَعْصَمِ ، وَيَمْتَدُّ إِلَى نِهَآئَةِ الْأَفْقِ . كَانَ السُّورُ  
مِنَ الْحِجَارَةِ الضَّخْمَةِ الْقَاسِيَةِ ، تَتَخَلَّلُهُ فَتَحَاتُ وَأَبْرَاجٌ وَقِلَاعٌ ، يَقِفُ  
عَلَى حِرَاسَتِهَا بَعْضُ الْجُنُودِ ، وَتَطِلُ مِنْهَا قُوَّاهُ الْمُدَافِعِ .

وَكَانَتْ هُنَاكَ بَوَابَةٌ ضَخْمَةٌ فِي قَلْبِ السُّورِ ، تُفْضِي إِلَى دَاخِلِ  
الْمَدِينَةِ ، فَعَبَّرَهَا كَرِيمُ الدِّينِ ، وَسَارَ قَلِيلًا يَتَجَوَّلُ فِي أَنْحَاءِ الْمَدِينَةِ ،  
ثُمَّ وَقَفَ حَائِرًا لَا يَدْرِي فِي أَيِّ اتِّجَاهٍ يَسِيرُ . وَشَاهَدَ رَجُلًا أَعْوَرَ يَضَعُ  
غِمَامَةً عَلَى إِحْدَى عَيْنَيْهِ ، وَيَبْدُو مُرِيبًا ، وَلَكِنَّ كَرِيمَ الدِّينِ لَمْ يَشُكَّ  
فِيهِ ، فَاقْتَرَبَ مِنْهُ وَسَأَلَهُ : « أَخْبِرْنِي أَيُّهَا السَّيِّدُ ، كَيْفَ أَصِلُ إِلَى  
جَبَلِ الْحِكْمَةِ ، وَأَقَابِلُ النَّاسِكِ الْمُتَعَبِّدِ الْمُقِيمِ فَوْقَ قِمَّتِهِ ؟ »



تَأْمَلُهُ الْأَعْوَرُ مُتَشَكِّكًا ، وَقَالَ لَهُ : « وَلَكِنْ لَا يَزَالُ أَمَامَكَ مَسَافَةٌ  
بَعِيدَةٌ وَسَفَرٌ طَوِيلٌ ، وَنَحْتَاجُ إِلَى مَالٍ كَثِيرٍ لِمِثْلِ هَذِهِ الرَّحْلَةِ . »  
أَجَابَهُ كَرِيمُ الدِّينِ فِي فَخْرٍ : « إِنِّي أَمْتَلِكُ مِنَ الذَّهَبِ مَا يَفِيضُ  
عَنْ حَاجَتِي ، فَاطْمَئِنِّ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ . »

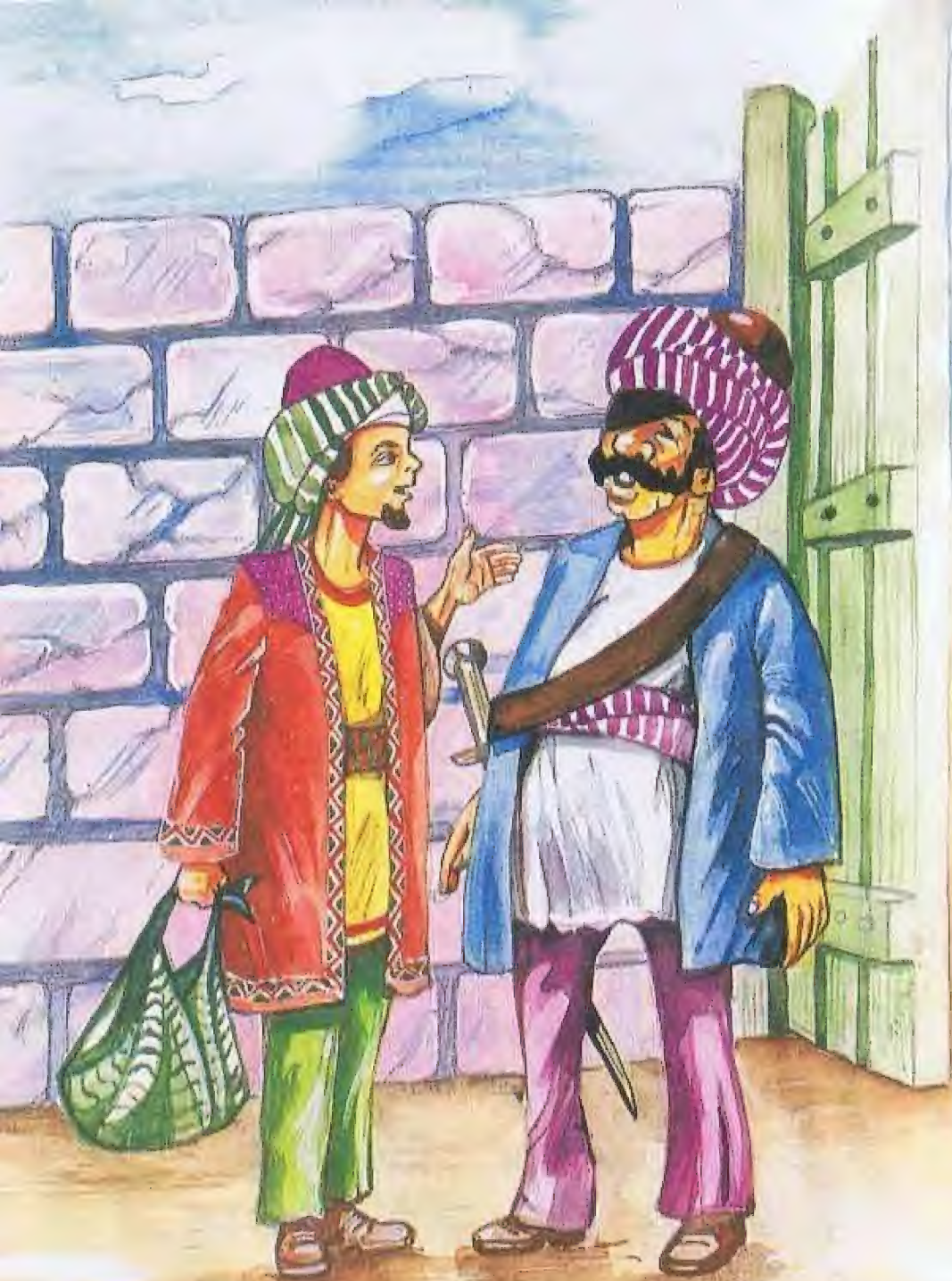
تَهَلَّلَتْ أَسَارِيرُ الْأَعْوَرِ ، وَرَبَّتْ عَلَى كَتِفِ كَرِيمِ الدِّينِ فِي وَدٍّ  
مُصْطَنَعٍ قَائِلًا : « وَلَكِنَّكَ تَبْدُو مُجْهِدًا مُتْعَبًا ، وَفِي حَاجَةٍ إِلَى نَوْمٍ  
وَرَاحَةٍ قَبْلَ سَفَرِكَ الطَّوِيلِ ، وَأَنَا أَعْرِفُ خَانًا قَرِيبًا ، يَقْدَمُ طَعَامًا جَيِّدًا  
وَفِرَاشًا وَثِيرًا ، فَيُمْكِنُكَ أَنْ تَرْتَاحَ فِيهِ . »

وَأَفَقَ كَرِيمُ الدِّينِ ، وَسَارَ مَعَ الرَّجُلِ الْمُرِيبِ إِلَى خَانٍ بَعِيدٍ يَقَعُ  
فِي أَطْرَافِ الْمَدِينَةِ ، تُعَشُّشُ فِي أَرْكَانِهِ الْبُومُ ، وَيَغْلُفُهُ السُّكُونُ  
وَالصَّمْتُ ، وَيَبْدُو كَأَنَّهُ مَأْوَى لِلْصُّوَصِ ؛ فَدَهِشَ كَرِيمُ الدِّينِ ، وَلَكِنْ  
الْأَعْوَرُ دَفَعَهُ إِلَى الدَّاخِلِ فِي مَكْرٍ قَائِلًا :

« لَا يَغْرُكَ مَظْهَرُ الْخَانِ ؛ فَهُوَ مِنَ الدَّاخِلِ مُرِيحٌ ، وَنَسْتَعْجِبُكَ  
الْإِقَامَةُ فِيهِ . »

وَكَانَ كَرِيمُ الدِّينِ يَشْعُرُ بِالتَّعَبِ وَالْوَهَنِ ؛ فَلَمْ يُجَادِلْ صَاحِبَهُ ،  
وَهَمَسَ لِنَفْسِهِ :

« فِي الْغَدِ سَأَبْحَثُ عَنْ مَكَانٍ آخَرَ لِلْإِقَامَةِ ، أَمَّا اللَّيْلَةُ فَلَا بَأْسَ  
مِنْ قَضَائِهَا بِأَيِّ شَكْلِ مِنَ الْأَشْكَالِ . »





وَأَسْتَقْبَلَهُ صَاحِبُ الْخَانِ ، وَكَانَ ذَا سَخَنَةٍ كَرِيهَةٍ وَمَلَامَحٍ حَادَّةٍ ،  
وَذِرَاعٍ مَبْتُورَةٍ ، وَقَالَ لِكَرِيمِ الدِّينِ : « مَرَحَبًا بِكَ أَيُّهَا الشَّابُّ .  
إِنَّكَ سَوْفَ تَرْتَاخُ فِي هَذَا الْخَانِ . »

تَأَمَّلَهُ كَرِيمُ الدِّينِ فِي صَمْتٍ وَشَكٍّ ، وَلَمْ يَرُدَّ .

وَقَادَهُ صَاحِبُ الْخَانِ لِأَعْلَى حُجْرَةٍ ، وَكَانَتْ تَحْتَوِي عَلَى فِرَاشٍ  
خَشِينٍ ، وَمَقَاعِدَ مُحَطَّمَةِ السِّيقَانِ ، وَدَوْلَابٍ قَدِيمٍ ، فَقَالَ كَرِيمُ  
الدِّينِ لِنَفْسِهِ فِي حَقِّ : « لَقَدْ خَدَعَنِي هَذَا الْأَعُورُ ، وَقَادَنِي إِلَى  
أَسْوَأِ خَانٍ فِي الْمَدِينَةِ . وَلَكِنْ لَا بَأْسَ ؛ فَإِنِّي أَجْهَلُ طُرُقَاتِهَا وَأَمَا كُنَّ  
الْإِقَامَةُ فِيهَا . وَفِي الْغَدِ سَيَكُونُ لِي شَأْنٌ آخَرُ . »

وَعَافَ الطَّعَامَ الَّذِي أَتَى بِهِ صَاحِبُ الْخَانِ ؛ فَقَدْ كَانَ كَرِيهَ  
الْمِذَاقِ ، ذَا رَائِحَةٍ مُقْبِضَةٍ ، فَهَمَسَ لِنَفْسِهِ : « مِنْ الْأَفْضَلِ أَنْ أَنَامَ  
بِدُونِ عَشَاءٍ . » ثُمَّ رَقَدَ فِي فِرَاشِهِ الْخَشِينِ بَعْدَ أَنْ أَغْلَقَ بَابَ حُجْرَتِهِ  
جَيِّدًا ، وَرَاحَ فِي نَوْمٍ عَمِيقٍ .

وَلَكِنَّهُ أَفَاقَ بَعْدَ وَقْتٍ عَلَى حَرَكَةٍ مُرِيَةٍ فِي ظِلَامِ الْحُجْرَةِ ؛  
كَانَتْ ثِمَّةٌ يَدٌ تَعْبَثُ بِحِزَامِهِ الَّذِي أَخْفَى فِيهِ ذَهَبَهُ ، وَتَحَاوَلُ أَنْ تَحُلَّهُ  
مِنْ وَسْطِهِ ، فَتَنَبَّهَ كَرِيمُ الدِّينِ وَقَفَزَ مِنْ مَكَانِهِ ، وَشَاهَدَ فِي الظُّلَامِ  
صَاحِبَ الْخَانِ وَصَاحِبَةَ الْأَعُورِ يُحَاوِلَانِ اسْتِلَابَ مَالِهِ ، فَصَاحَ فِيهِمَا  
غَاضِبًا : « مَاذَا تَفْعَلَانِ أَيُّهَا اللَّصَانِ ؟ أَمْ هَذَا خَانَ أَمْ وَكَرَّ لِلْأَوْغَادِ ؟ »

انْقَضَ عَلَيْهِ صَاحِبُ الْخَانِ وَلَطَمَهُ بِقَبْضَتِهِ صَائِحًا : « مَا الَّذِي  
أَوْقَظَكَ أَيُّهَا الْأَحْمَقُ وَقَدْ وَضَعْتُ لَكَ مَنُومًا فِي الطَّعَامِ ؟ وَلَكِنَّا  
سَنَسْتَوْلِي عَلَى مَالِكَ . » وَقَيْدَهُ الْأَعُورُ مِنَ الْخَلْفِ صَائِحًا : « وَإِذَا  
حَاوَلْتَ الْمَقَاوِمَةَ قَتَلْنَاكَ دُونَ رَحْمَةٍ . »

حَاوَلَ كَرِيمُ الدِّينِ الْمَقَاوِمَةَ ، وَلَكِنْ انْدَفَعَ إِلَى الْحُجْرَةِ فِي  
اللَّحْظَةِ نَفْسَهَا ثَلَاثَةُ أَشْخَاصٍ مِنْ ذَوِي الْعَاهَاتِ : أَحَدُهُمْ أَعْرَجٌ ،  
وَالثَّانِي أَحْدَبٌ ، وَالثَّالِثُ أَجْدَعُ الْأَنْفِ مُشَوَّهُ الْوَجْهِ ، وَيَبْدُو الْإِجْرَامَ  
عَلَى وَجُوهِهِمْ . وَانْدَفَعُوا نَحْوَ كَرِيمِ الدِّينِ ، وَرَاحُوا يَلْكَمُونَهُ  
وَيَضْرِبُونَهُ حَتَّى فَقَدَ وَعْيَهُ ، فَاسْتَوْلَى اللَّصُوصُ عَلَى حِزَامِهِ ، وَقَبَضَ  
الْأَعُورُ عَلَى الذَّهَبِ فِي جَسَعٍ ، وَعَيْنُهُ السَّلِيمَةُ تَكَادُ تَخْرُجُ مِنْ  
مَحْجَرِهَا ، وَقَالَ :

« مَا أَكْثَرَ هَذَا الذَّهَبَ ! إِنِّي مِنْذُ وَقْتٍ طَوِيلٍ لَمْ أَشَاهِدْ مِثْلَ هَذَا  
الْقَدْرِ مِنَ الذَّهَبِ ، وَمِنْ الْغَبَاءِ أَنْ يَسِيرَ بِهِ إِنْسَانٌ وَحْدَهُ . وَلَكِنْ يَبْدُو  
أَنَّ هَذَا الشَّابَّ أَحْمَقُ بِشَكْلِ مُنْقَطِعِ النَّظِيرِ ، وَهُوَ يَسْتَحِقُّ كُلَّ مَا  
سَيَجْرِي لَهُ عَلَى أَيْدِينَا . »

صَرَخَ صَاحِبُ الْخَانِ فِي رِفَاقِهِ : « لِنَحْمِلْ هَذَا الشَّابَّ إِلَى  
الْخَارِجِ ، وَنَلْقَاهُ فِي الْوَادِي السَّحِيقِ ، فَتَتَهَشَّمُ عِظَامُهُ وَيَمُوتَ ، فَلَا  
يَكْتَشِفُ إِنْسَانٌ سِرَّ قَتْلِهِ ، وَبِخَاصَّةٍ جُنُودُ الْحَاكِمِ الْمُنْتَشِرُونَ فِي كُلِّ



مَكَانٍ . وَبَعْدَهَا يُمَكِّنُنَا الْعَوْدَةَ لِنَقْتَسِمَ الذَّهَبَ فِي أَمَانٍ .

أَمَّنَ الْبَاقُونَ عَلَى قَوْلِهِ ، وَأَخْفَوْا كَرِيمَ الدِّينِ دَاخِلَ غِرَارَةٍ ،  
وَحَمَلُوهُ مُتَسَلِّلِينَ خَارِجَ الْخَانِ مُسْتَتَرِينَ بِالظَّلَامِ ، وَاقْتَرَبُوا مِنْ حَاقَةِ  
الْوَادِي الْعَمِيقِ ، وَرَفَعُوا كَرِيمَ الدِّينِ دَاخِلَ الْغِرَارَةِ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ .  
وَفِي اللَّحْظَةِ نَفْسُهَا اسْتَعَادَ كَرِيمَ الدِّينِ وَعِيَهُ ، وَأَلْفَى نَفْسَهُ مُقِيدًا  
دَاخِلَ الْغِرَارَةِ ، وَأَدْرَكَ مَا يَحِيقُ بِهِ مِنْ خَطَرٍ ، وَالْمَصِيرَ الَّذِي يَنْتَظِرُهُ ،  
فَصَرَخَ فِي اللَّصُوصِ : « لَا تَقْتُلُونِي ! خُذُوا ذَهَبِي بِأَكْمَلِهِ وَلَكِنْ  
اتْرَكُونِي حَيًّا . »

فَهَفَّهَ الْأَعْوَرُ وَأَجَابَهُ بِصَوْتٍ أَجَشُّ : « نَحْنُ لَسْنَا أَغْيَاءَ لِنَتْرَكَكَ  
حَيًّا ؛ فَتَرْتَدِّدَ الشُّرْطَةُ إِلَيْنَا . وَالطَّرِيقَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي نَضْمُنُ بِهَا  
سُكُونَكَ هِيَ إِخْرَاسُكَ إِلَى الْأَبَدِ ! وَاعْتَقِدْ أَنَّكَ سَتَتَعَلَّمُ بَعْدَهَا دَرَسًا  
مُفِيدًا لِكَيْ لَا تَحْمِلَ مِثْلَ هَذَا الْقَدَرِ مِنَ الذَّهَبِ ، وَتَسِيرَ بِهِ فِي  
الطَّرَافِ . وَلَكِي لَا تَتَّقِ بِالْمَجْرِمِينَ بَعْدَ ذَلِكَ . »

وَفَهَفَّهَ الْأَعْوَرُ ثَانِيَةً فَشَارَكَهُ زُمَلَاؤُهُ الضَّحِكَ بِصَوْتٍ عَالٍ ، ثُمَّ  
قَسَتْ عَيُونُهُمْ وَتَحَجَّرَتْ ، وَقَبِضَتْ أَصَابِعُهُمْ عَلَى الْغِرَارَةِ ، وَرَفَعُوها  
بَيْنَ أَيْدِيهِمْ عَالِيًا ، وَتَهَيَّأُوا لِإِلْقَائِهَا فِي قَلْبِ الْوَادِي ، دُونَ أَنْ  
تَأْخُذَهُمْ شَفَقَةُ بِكَرِيمِ الدِّينِ أَوْ رَحْمَةٌ .

## الفصل الخامس

### الفارس المنقذ

فَجَاءَ عَلَا صَوْتٌ حَادٌّ غَاضِبٌ مِنَ الْخَلْفِ يَقُولُ : « مَكَانَكُمْ أَيُّهَا  
الْمَجْرِمُونَ ! مَاذَا تَفْعَلُونَ ؟ »

الْتَفَتَ اللَّصُوصُ الْخَمْسَةُ إِلَى الْوَرَاءِ وَأَصَابِعُهُمْ لَا تَزَالُ قَابِضَةً  
عَلَى الْغِرَارَةِ ، فَشَاهَدُوا فَارِسًا مُلْتَمًا مُمْتَطِيًا جَوَادًا أَشْهَبَ ، وَقَدْ  
تَمَنَّقَ بِسَيْفٍ لَهُ نَصْلٌ رَهيبٌ .

وَهَمَسَ ذُو الذَّرَاعِ الْمُبْتَوْرَةِ لِرِفَاقِهِ فِي قَلْقٍ : « إِنَّهُ يَبْدُو أَحَدَ رِجَالِ  
الشُّرْطَةِ ، وَلَكِنْ تَخَفِيهِ مُرِيبٌ . »

هَمَسَ الْأَعْوَرُ : « مَهْمَا كَانَ فَهُوَ رَجُلٌ وَاحِدٌ وَنَحْنُ خَمْسَةٌ .  
وَإِذَا حَاوَلَ مُقَاوَمَتَنَا كَانَتْ نِهَائِيَّتُهُ أَيْضًا فِي بَطْنِ الْوَادِي . » ثُمَّ صَاحَ  
فِي الْفَارِسِ : « لَيْسَ مِنْ شَأْنِكَ ، أَيُّهَا الرَّجُلُ ، أَنْ تَسْأَلَنَا عَمَّا تَفْعَلُهُ  
أَيًّا مِنْ كُنْتِ . وَالْآنَ ، هَيَّا اذْهَبْ بَعِيدًا وَلَا نَالِكَ الْأَذَى مِنَّا . »



أَجَابَهُ الْفَارِسُ سَاحِرًا : « إِنِّي مُشْتَاقٌ لِهَذَا الْأَذَى ، وَلَتُظْهِرُوا  
شَجَاعَتَكُمْ . »

حَرَقَ ذُو الدَّرَاعِ الْمُبْتَوْرَةَ عَلَى أَنْيَابِهِ فِي غَيْظٍ ، وَقَالَ : « حَسَنًا .  
سَوْفَ تَكُونُ نِهَائِتِكَ عَلَى أَيْدِينَا ، أَيُّهَا الْمَتَطَفِّلُ ، فَاسْتَعِدَّ لِتِلْقَائِي  
نِهَائِتِكَ ! »

وَأَلْقَى اللَّصُوصُ الْخَمْسَةَ بِالْغِرَارَةِ عَلَى الْأَرْضِ ، وَأَشْهَرُوا  
سُيُوفَهُمْ وَخَنَاجِرَهُمْ ، وَانْدَفَعُوا مَعًا فِي اتِّجَاهِ الْفَارِسِ لِيَحِيطُوا بِهِ  
عَلَى شَكْلِ قَوْسٍ مِنَ الْأَمَامِ .

وَوَظَلَ الْفَارِسُ مَكَانَهُ دُونَ أَنْ يُرْهِبَهُ هُجُومُ اللَّصُوصِ ، ثُمَّ تَحَرَّكَ  
فِي اللَّحْظَةِ الْحَاسِمَةِ مُتَفَادِيًا سَيْفَ ذِي الدَّرَاعِ الْمُبْتَوْرَةَ ؛ إِذْ تَرَاوَعَ  
بِجَوَادِهِ فِي مَهَارَةٍ لِلْخَلْفِ ، وَتَلَقَّى ضَرْبَةً صَاحِبِ الْخَانِ فَوْقَ دِرْعِهِ ،  
ثُمَّ عَاجَلَهُ بِضَرْبَةٍ مِنْ قَدَمِهِ أَطَاحَتْ بِهِ بَعِيدًا ، وَقَفَزَ الْفَارِسُ مِنْ فَوْقِ  
جَوَادِهِ ، مُتَحَاشِيًا طَعْنَةَ ثَانِي الْمُهَاجِمِينَ ، وَبِضَرْبَةٍ سَيْفٍ بَارِعَةٍ أَصَابَ  
ذِرَاعَهُ ، فَسَقَطَ الْمُهَاجِمُ عَلَى الْأَرْضِ يَصْرُخُ مِنَ الْأَلَمِ .

وَانْدَفَعَ الْأَعْوَرُ فِي غَضَبٍ ، صَارِخًا : « سَوْفَ تَكُونُ نِهَائِتِكَ عَلَى  
يَدَيَّ أَيُّهَا الْمَتَطَفِّلُ ! »

وَشَارَكَهُ زَمِيلَاهُ هُجُومَهُ ، وَهَوَتْ سُيُوفُهُمْ فَوْقَ الْفَارِسِ ، وَلَكِنَّهُ





تَلَقَّاهَا فَوْقَ دِرْعِهِ ، وَبَسِيفِهِ أَطَاحَ بِسُيُوفِ مُهَاجِمِيهِ بِضْرَةٍ وَاحِدَةٍ .  
وَطَارَتْ قَبْضَتُهُ مِثْلَ الْعَاصِفَةِ فَهَشَمَتْ فَكَّ أَوَّلِ مُهَاجِمِيهِ وَأَسْقَطَتْ  
أَسْنَانَهُ ، وَحَطَّمَتْ أَنْفَ الثَّانِي وَسَوَّتَهُ بِوَجْهِهِ ، ثُمَّ اسْتَقَرَّتْ فِي مَعِدَةِ  
الْأَعْوَرِ ، فَتَقَوَّسَ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ شِدَّةِ الْأَلَمِ وَقَدْ جَحَظَتْ عَيْنُهُ  
السَّلِيمَةُ ، وَتَرَجَعَ إِلَى الْخَلْفِ مِنْ شِدَّةِ الضَّرْبَةِ وَقُوَّتِهَا ، وَقَبْلَ أَنْ  
يَتَبَهَّ زَلَّتْ قَدَمُهُ ، وَتَهَاوَى إِلَى بَطْنِ الْوَادِي وَهُوَ يُطْلِقُ صَرَخًا مَدْوِيًّا ،  
ثُمَّ ارْتَطَمَ بِالصُّخُورِ الْعَمِيقَةِ ، وَتَهَشَمَتْ عِظَامُهُ ، عَلَى حِينِ تَنَاقُزِ  
الذَّهَبِ أَسْفَلَ الْوَادِي بَيْنَ شُقُوقِ الصُّخُورِ .

وَعِنْدَمَا شَاهَدَ بَقِيَّةَ اللُّصُوصِ مَا حَلَّ بِزَمِيلِهِمْ ، تَرَجَعُوا فِي  
خَوْفٍ ، وَانْطَاقُوا هَارِبِينَ . لَمْ يُحَاولِ الْفَارِسُ مُطَارَدَةَ اللُّصُوصِ ،  
وَكَانَهُ مَوْقِنٌ مِنْ سُقُوطِهِمْ فِي يَدَيْهِ بِشَكْلِ مَا . وَأَزَاحَ لِثَامَهُ فَظَهَرَتْ  
مَلَامِحُهُ قَاسِيَةً عَنِيدَةً ، وَعَيْنَاهُ تَبَرَّقَانِ كَمَا لَوْ كَانَتَا تُشْعَانِ بِاللَّهَبِ .  
وَاقْتَرَبَ الْفَارِسُ مِنَ الْغُرَارَةِ الْمُلقَاةِ أَمَامَهُ ، فَاسْتَمَعَ إِلَى أَتْنِ شَخْصٍ  
يَدَاخِلُهَا ، فَاسْرَعَ بِحُلَّهَا . وَلَمْ يُصَدِّقْ كَرِيمُ الدِّينِ نَجَاتَهُ ، عَلَى  
تِلْكَ الصُّورَةِ الْمُفَاجِئَةِ ، وَتَطَّلَعَ حَوْلَهُ فِي خَوْفٍ وَهُوَ يَرْتَجِفُ ، قَائِلًا :  
« أَتَيْنَ اخْتَفَى هَؤُلَاءِ اللُّصُوصُ الْأَشْرَارُ ؟ لَقَدْ أَوْشَكُوا عَلَى قَتْلِي  
وَالْقَائِي فِي بَطْنِ الْوَادِي . لَا أَصَدِّقُ أَنَّي نَجَوْتُ مِنْهُمْ وَلَا أزالُ  
حَيًّا . »

وَتَبَهَّ إِلَى وُجُودِ الْفَارِسِ ، فَتَأَمَّلَهُ قَلِيلًا وَسَأَلَهُ : « مَنْ تَكُونُ أَيُّهَا  
الْفَارِسُ ؟ هَلْ أَنْتَ الْبَطْلُ الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَ قِتَالِهِ لِهَؤُلَاءِ  
اللُّصُوصِ ؟ »

أَجَابَهُ الْفَارِسُ مُتَجَهِّمًا : « هَذَا صَحِيحٌ . وَلِحَسَنِ الْحَظِّ أَنَّنِي  
قَدِمْتُ فِي لَحْظَةٍ مُنَاسِبَةٍ لِإِقْفَافِ هَؤُلَاءِ الْمُجْرِمِينَ ؛ فَقَدْ شَاهَدْتُهُمْ  
يَحْمِلُونَ غُرَارَةً يَوْشِكُونَ أَنْ يُلْقُوا بِهَا فِي الْوَادِي ، فَارْتَبْتُ فِي أَمْرِهِمْ  
وَأَمَرْتُهُمْ بِالتَّوَقُّفِ ، وَلَكِنَّهُمْ ائْتَدَفَعُوا نَحْوِي مُشْهَرِينَ سُبُوقَهُمْ  
وَخَاجِرَهُمْ ، مُسْتَهِينِينَ بِأَنِّي وَحِيدٌ وَهُمْ كَثَرَةٌ ، فَنَالَهُمْ مِنِّي أَدَى  
بَالِغٌ ، وَسَقَطَ أَحَدُهُمْ فِي الْوَادِي السَّخِيقِ ، وَتَنَاقَزَ مَا كَانَ يَحْمِلُهُ  
مَعَهُ مِنْ ذَهَبٍ بَيْنَ شُقُوقِ الصُّخُورِ . »

صَرَخَ كَرِيمُ الدِّينِ فِي جَزَعٍ : « مَاذَا قُلْتَ أَيُّهَا الْفَارِسُ ؟ هَلْ  
سَقَطَ ذَهَبِي فِي بَطْنِ الْوَادِي ؟ يَا لِحَسْرَتِي ! لَقَدْ ضَاعَ كُلُّ مَا  
أَمْلِكُ ! وَلَكِنِّي لَنْ أَتْرَكَهُ قَبْلَ أَنْ أَسْتَعِيدَهُ . »

وَأَتَدَفَعَ كَرِيمُ الدِّينِ إِلَى حَافَةِ الْوَادِي ، يُرِيدُ هَبْوَطَهُ ، وَلَكِنْ  
الْفَارِسُ قَبَضَ عَلَى ذِرَاعِهِ ، وَقَالَ لَهُ غَاضِبًا : « هَلْ جُنُنْتَ ؟ إِنْ  
أَحَدًا لَا يَسْتَطِيعُ هَبْوَطَ هَذَا الْوَادِي سَالِمًا ؛ بِسَبَبِ حَدَّةِ صُخُورِهِ  
وَأَنْحِدَارِهَا . وَآيُّ خَطَأٍ كَفِيلٌ بِإِنْزِلَاقِ قَدَمَيْكَ وَسُقُوطِكَ فَتَهْلِكَ . »



وَحَتَّى إِذَا تَمَكَّنَتْ مِنَ الْوُصُولِ إِلَى الْوَادِي سَالِمًا فَلَنْ تَتَمَكَّنَ مِنْ  
اسْتِعَادَةِ ذَهَبِكَ ، فَقَدْ تَسَاقَطَ بَيْنَ الصُّخُورِ وَاخْتَفَى دَاخِلَهَا ،  
وَسَيَتَعَدَّرُ عَلَيْكَ اسْتِرْدَادُ قِطْعَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْهُ .

وَضَاقَتْ عَيْنَاهُ أَكْثَرَ وَهُوَ يُضِيفُ : « كَمَا أَنَّ قَاعَ هَذَا الْوَادِي  
يَمْتَلِئُ بِالْحَيَاتِ وَالْعَقَارِبِ السَّامَةِ . وَحَتَّى إِذَا تَمَكَّنْتَ مِنْ اسْتِعَادَةِ  
ذَهَبِكَ بِأَيِّ طَرِيقَةٍ ، فَلَنْ تَتْرَكَ لَكَ هَذِهِ الزُّوَاحِفُ وَالْحَشَرَاتُ الْفُرْصَةَ  
لِلصُّعُودِ مَرَّةً أُخْرَى .

جَلَسَ كَرِيمُ الدِّينِ عَلَى أَقْرَبِ صَخْرَةٍ ، وَأَخْفَى وَجْهَهُ فِي أَلَمٍ ،  
وَقَالَ مُتَأَوِّهاً : « يَا لِسُوءِ حَظِّي ! لَقَدْ ضَاعَ كُلُّ مَا أَمْلِكُ ، بِسَبَبِ  
هَؤُلَاءِ اللَّصُوصِ الْأَشْرَارِ . أَلْفُ دِينَارٍ مِنَ الذَّهَبِ ضَاعَتْ هَبَاءً  
مَنْثُورًا .

تَطَلَّعَ الْفَارِسُ إِلَى كَرِيمِ الدِّينِ ، وَقَدْ زَوَى مَا بَيْنَ حَاجِبَيْهِ ، وَقَالَ  
لَهُ : « إِنَّكَ تَسْتَحِقُّ مَا جَرَى لَكَ عَلَى آيَةِ حَالٍ .

قَفَزَ كَرِيمُ الدِّينِ غَاضِبًا وَقَالَ : « وَمَا الَّذِي فَعَلْتَهُ لَأَسْتَحِقَّ سَرِقَةً  
اللَّصُوصِ لِي ؟ »

أَجَابَهُ الْفَارِسُ : « إِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ مُضْطَرًّا لِحَمْلِ مِثْلِ هَذَا  
الْقَدْرِ مِنَ الذَّهَبِ ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ قَادِرًا عَلَى حِمَايَتِهِ . وَبِالرَّغْمِ





مِنْ أَنْ مُهَاجِمِكَ مِنَ اللَّصُوصِ كَانُوا خَمْسَةً مِنْ ذَوِي الْعَاهَاتِ ،  
وَيَكْفِي سَيْفٌ أَوْ رُمَحٌ لِتَفْرِقَتِهِمْ أَوْ إِخَافَتِهِمْ ، فَإِنَّكَ لَمْ تَسْتَطِعْ  
مُقَاوَمَةَ أَحَدِهِمْ ، وَكَانَ مَصِيرُكَ دَاخِلَ غِرَارَةٍ مُغْلَقَةٍ ، تَكَادُ تَسْقُطُ  
فِي هَوَاةِ الْوَادِي ، كَأَنَّكَ شَاةٌ ذَبِيحَةٌ لَا حَوْلَ لَهَا وَلَا قُوَّةَ ، بِالرُّعْمِ  
مِمَّا أَرَاهُ مِنْ كِمَالِ جَسَدِكَ وَاسْتِقَامَةِ عَوْدِكَ وَتَمَامِ صِحَّتِكَ ؛ مِمَّا  
يُؤْهِلُكَ لِأَنْ تَكُونَ مُبَارِزًا أَوْ مُقَاتِلًا مَاهِرًا .

أَحْسَ كَرِيمُ الدِّينِ بِالْخَجَلِ ، وَقَالَ : « وَلَكِنِّي لَا أَجِيدُ الْمُبَارَزَةَ أَوْ  
اسْتِعْمَالَ السَّيْفِ ، فَلَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّي سَاحْتَاجُ إِلَيْهِمَا أَبَدًا . »

ضَاقَتْ عَيْنَا الْفَارِسِ فِي قِسَاوَةِ أَكْثَرِ ، وَقَالَ : « هَذَا عَذْرٌ أَقْبَحُ  
مِنْ ذَنْبٍ ! فَمَا الَّذِي يَمْنَعُ شَابَاً مِثْلَكَ مَوْفُورَ الْقُوَّةِ وَالصَّحَّةِ مِنْ تَعَلُّمِ  
الْمُبَارَزَةِ ؛ لِيَكُونَ قَادِرًا ، فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ ، عَلَى الدَّفَاعِ عَنْ نَفْسِهِ  
وَعَنِ الْآخَرِينَ ضِدَّ اللَّصُوصِ وَالْأَعْدَاءِ . فَإِذَا فَعَلَ كُلُّ شُبَّانِ الْبِلَادِ  
مِثْلَ فِعْلِكَ ، وَاسْتَكَانُوا لِلدَّعَةِ وَحَيَاةِ السُّكُونِ ، فَمَنْ سَيَتَصَدَّى  
لِلْأَعْدَاءِ إِذَا حَاوَلُوا غَزْوَ الْبِلَادِ وَاسْتِلَابَ الْأَرْضِ وَالْدِّيَارِ وَالْأَمْوَالِ ؟ »

أَحْسَ كَرِيمُ الدِّينِ بِخَجَلٍ شَدِيدٍ وَلَمْ يَذَرِ مَا يَقُولُهُ ، وَنَكَّسَ  
رَأْسَهُ ، ثُمَّ هَمَسَ بِصَوْتٍ خَفِيفٍ قَائِلًا : « صَدَقْتَ ، يَا سَيِّدِي  
الْفَارِسَ . أَنْتَ مُصِيبٌ فِيمَا قُلْتَهُ . وَلَيْتَنِي تَعَلَّمْتُ النِّزَالَ وَالطُّعَانَ ،

وَمَهَارَةَ السَّيْفِ مِنْ وَالِدِي قَبْلَ وَفَاتِهِ ، فَمَا أَكْثَرَ مَا نَصَحَنِي بِذَلِكَ !  
وَلَكِنِّي أَعْرَضْتُ عَنْ نَصِيحَتِهِ ، وَاسْتَكْنْتُ إِلَى حَيَاةِ الدَّعَةِ وَالْكَسَلِ  
وَالْخُمُولِ ، دُونَ أَنْ أَدْرِي أَنَّ قِلَّةَ خَيْرَتِي بِالْقِتَالِ وَالِدَّفَاعِ عَنِ النَّفْسِ ،  
قَدْ يُصْبِحُ ثَمَنُهَا حَيَاتِي ذَاتَهَا .

سَأَلَهُ الْفَارِسُ : « مَنْ هُوَ وَالِدُكَ الَّذِي تَتَحَدَّثُ عَنْهُ ؟ »

أَجَابَهُ كَرِيمُ الدِّينِ بِعَيْنَيْنِ مُبِلَّتَيْنِ بِالْدُمُوعِ : « إِنَّهُ رَئِيسُ التُّجَّارِ  
السَّابِقُ حَكِيمُ الدِّينِ - رَحِمَهُ اللَّهُ . »

هَتَفَ الْفَارِسُ بِصَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ : « هَلْ أَنْتَ حَقًّا ابْنُ رَئِيسِ التُّجَّارِ  
حَكِيمِ الدِّينِ ؟ كَيْفَ لَمْ أَتَبَّهْ إِلَى ذَلِكَ الشَّبهِ الْكَبِيرِ بَيْنَكُمَا ؟ »  
وَاحْتَضَنَ الْفَارِسُ كَرِيمَ الدِّينِ ، وَاعْرَوْرَقَتْ عَيْنَاهُ بِالْدُمُوعِ وَهُوَ  
يَقُولُ : « أَنْتَ حَقًّا ابْنُ الْغَالِي حَكِيمِ الدِّينِ - رَحِمَهُ اللَّهُ ؟ إِنَّنِي لَا  
أَكَادُ أَصَدِّقُ مَا أَرَاهُ وَأَسْمَعُهُ . »

دَهَشَ كَرِيمُ الدِّينِ ، وَسَأَلَ الْفَارِسَ : « هَلْ كُنْتَ تَعْرِفُ أَبِي ؟ »

تَأَمَّلَهُ الْفَارِسُ فِي وَدٍّ بِالْغِيِّ ، وَأَجَابَهُ : « وَمَنْ فِي كُلِّ هَذِهِ  
الْأَنْحَاءِ لَا يَعْرِفُ رَئِيسَ التُّجَّارِ حَكِيمَ الدِّينِ ، وَلَا يَدِينُ لَهُ  
بِالْفَضْلِ ؟ فَهُوَ وَاحِدٌ مِنَ الْأَبْطَالِ الَّذِينَ خَاضُوا الْحَرْبَ لِإِنْقَادِ بِلَادِنَا



مِنَ التَّارِ ، عِنْدَمَا هَجَمُوا عَلَيْهَا وَحَافَلُوا غُرُوبَهَا ، فَرَدُّوهُمْ عَلَى  
أَعْقَابِهِمْ مَذْحُورِينَ .

تَعَجَّبَ كَرِيمُ الدِّينِ ، وَقَالَ فِي دَهْشَةٍ بِالْعَةِ : « إِنِّي لَا أَدْرِي  
شَيْئًا عَنْ هَذَا الْأَمْرِ ، وَلَمْ يُخْبِرْنِي بِهِ إِنْسَانٌ وَلَا حَتَّى وَالِدِي ،  
فَأَرْجُوكَ أَنْ تَقْصَّ عَلَيَّ كُلُّ مَا قَامَ بِهِ أَبِي مِنْ بَطُولَاتٍ ضِدَّ التَّارِ . »  
قَالَ الْفَارِسُ مُبْتَسِمًا : « هَذِهِ حِكَايَةٌ طَوِيلَةٌ ، وَالْأَفْضَلُ أَنْ نَعُودَ  
لِمَنْزِلِي وَنَرْتَّاحَ ، ثُمَّ أَخْبِرَكَ بِكُلِّ شَيْءٍ هُنَاكَ . »

أَرْدَفَ الْفَارِسُ كَرِيمَ الدِّينِ خَلْفَهُ ، وَانْطَلَقَ بِهِمَا الْجَوَادُ إِلَى  
مَنْزِلٍ رَحْبٍ فِي قَلْبِ الْمَدِينَةِ ، تُحِيطُهُ حَدِيقَةٌ مُثْمِرَةٌ . وَبَعْدَ الْعِشَاءِ  
قَالَ كَرِيمُ الدِّينِ لِلْفَارِسِ فِي شَغَفٍ : « أَخْبِرْنِي كَيْفَ تَمَّتْ هَزِيمَةُ  
التَّارِ وَدَحْرُهُمْ ؟ فَالْفُضُولُ يَكَادُ يَقْتُلُنِي لِسَعْرِفَةِ مَا حَدَثَ . »

تَأَلَّفَتْ عَيْنَا الْفَارِسِ بِوَمِيزٍ مِنَ الذِّكْرِى الْجَمِيلَةِ ، وَقَالَ :  
« كَانَ هَذَا مِنْذُ سَنَوَاتٍ بَعِيدَةٍ ، وَكُنْتُ أَخْطُو إِلَى عَتَبِ الشُّبَابِ ،  
وَأَعْمَلُ حَدَادًا . وَذَاتَ يَوْمٍ أُعْلِنَ عَنْ وَصُولِ سَفِينَةٍ ضَخْمَةٍ مُحْمَلَةٍ  
بِالْبَضَائِعِ النَّادِرَةِ ، وَالْجَوَاهِرِ الثَّمِينَةِ ، وَالْأَقْمِشَةِ الْفَاخِرَةِ ، وَالْعُطُورِ  
الْغَالِيَةِ ، فَتَدَافَعَ سُكَّانُ الْبِلَادِ مِنَ النُّبَلَاءِ وَالْأَثَرِيَاءِ مِنْ كُلِّ الْأَنْحَاءِ ؛  
لِيَحْصُلُوا عَلَى تِلْكَ الْبَضَائِعِ الَّتِي جَلَبَهَا صَاحِبُهَا مِنْ بِلَادٍ مَا وَرَاءَ

الْبَحَارِ ، وَالْجُزُرِ النَّائِيَةِ الْغَرِيبَةِ .

« وَلَمَّا كُنْتُ لَا أَمْلِكُ غَيْرَ قُوَّةٍ يَوْمِي ، وَلَيْسَ مَعِيَ دَنَانِيرٌ وَلَا  
ذَهَبٌ أَشْتَرِي بِهِ ؛ لِذَلِكَ لَمْ أَهْرَعْ مَعَ الْمُتَعَجِّلِينَ لِلشِّرَاءِ . وَقَدْ فَعَلَ  
فِعْلِي أَغْلَبُ سُكَّانِ الْمَدِينَةِ مِنَ الْفُقَرَاءِ ، فَبَقَدَرُ مَا كَانَ هُنَاكَ قَلَّةٌ  
مِنَ الْأَغْنِيَاءِ اِمْتَلَكْتُ كُلَّ شَيْءٍ - كَانَ هُنَاكَ كَثِيرُونَ مِمَّنْ لَا  
يَمْلِكُونَ قُوَّةَ يَوْمِهِمْ . وَلَكِنَّا فَوَّجْنَا بِأَنَّ صَاحِبَ تِلْكَ الْبَضَائِعِ ،  
بَعْدَ أَنْ بَاعَهَا لِأَثَرِيَاءِ الْمَدِينَةِ ، جَاءَ يَسْعَى إِلَى كُلِّ الْفُقَرَاءِ ، وَوَزَعَ  
عَلَيْهِمْ نَصْفَ مَا حَصَلَ عَلَيْهِ مِنْ مَالٍ ؛ فَبَاتَتْ مَدِينَتُنَا لَيْلَتَهَا ، وَقَدْ  
تَحَوَّلَتِ الدَّمُوعُ إِلَى ابْتِسَامَاتٍ ، وَلَهَجَتِ الْأَلْسِنَةُ بِالْأُدْعَاءِ لِذَلِكَ  
التَّاجِرِ الْكَرِيمِ ، رَئِيسِ التَّجَارِ حَكِيمِ الدِّينِ . وَلَا عَجَبَ أَنْ ضَاعَفَ  
اللَّهُ مِنْ رِزْقِهِ وَهُوَ بِذَلِكَ الْكَرَمِ وَالْإِحْسَانِ . »

أُنْصَتَ كَرِيمُ الدِّينِ ذَاهِلًا لِمَا يَقْصُهُ الْفَارِسُ ، وَعَظَّ شَفْتَيْهِ  
بِقِسْوَةٍ عِنْدَمَا تَذَكَّرَ الْفُقَرَاءَ وَالْمُعْوزِينَ الَّذِينَ كَانَ يَطْرُدُهُمْ عَنْ بَابِهِ ،  
وَيَمْنَعُ عَنْهُمْ الْخُبْزَ الْيَابِسَ ، عَلَى حِينٍ كَانَ يَنْعَمُ مَعَ أَصْدِقَائِهِ بِكُلِّ  
الْأَطْيَابِ وَاللَّذَائِدِ .

وَوَاصَلَ الْفَارِسُ حَدِيثَهُ : « فِي تِلْكَ الْأَثْنَاءِ مَنَحَنِي وَالِدُكَ عَشْرَةَ  
دَنَانِيرَ كَامِلَةٍ ، لَمْ أَكُنْ قَدْ اِمْتَلَكْتُ مِثْلَهَا فِي حَيَاتِي ، فَشَكَرْتُهُ ،  
وَبِهَذَا الْمَالِ كَسَوْتُ نَفْسِي وَتَنَاوَلْتُ مِنَ الطَّعَامِ مَا اشْتَهَيْتُ . »



وَأَطْرَقَ الْفَارِسُ بِرَأْسِهِ لِحِظَةً ، ثُمَّ قَالَ : « وَفِي تِلْكَ الْأَنْبَاءِ تَرَامَتِ  
الْأَنْبَاءُ لَنَا عَنْ طَرِيقِ الْحَمَامِ الزَّاجِلِ ، بِقُرْبِ وَصُولِ التَّتَارِ إِلَى الْبِلَادِ  
فِي حُشُودٍ هَائِلَةٍ ؛ لِلْاِسْتِيلَاءِ عَلَى بِلَادِنَا وَسَلْبِ خَيْرَاتِهَا ، فَعَمَّ  
الدُّعْرُ وَالْفَوْضَى كُلُّ الْأَنْحَاءِ . وَصَارَ كُلُّ إِنْسَانٍ يُرِيدُ الْهَرَبَ  
بِحَيَاتِهِ قَبْلَ مَجِيءِ الطُّوفَانِ ، الَّذِي لَا يَذَرُ وَلَا يُتْقِي عَلَى حَيَاةِ  
إِنْسَانٍ : شَيْخًا كَانَ أَوْ امْرَأَةً أَوْ طِفْلًا . »

## الفصل السادس هجوم التتار

سَأَلَ كَرِيمُ الدِّينِ فِي دَهْنَسَةِ : « وَلِمَاذَا خِفْتُمْ التَّتَارَ إِلَى هَذَا  
الْحَدِّ ؟ أَلَمْ يَكُنْ لَدَيْكُمْ جَيْشٌ لِحِمَايَةِ الْبِلَادِ ؟ »

هَزَّ الْفَارِسُ رَأْسَهُ قَائِلًا : « نَعَمْ ، لَمْ يَكُنْ لَدَيْنَا جَيْشٌ ؛ فَقَدْ  
كَانَتْ بِلَادُنَا مُقَسَّمَةً مَقَاطِعَاتٍ مُتَنَافِرَةٍ مُتَحَارِبَةٍ ، كُلٌّ مِنْهَا  
يَحْكُمُهَا أَحَدُ النُّبَلَاءِ مِنْهُمْ لَمْ يَكُنْ يَهْمُهُمْ غَيْرُ تَكْدِيسِ الْمَالِ ،  
وَتَعْيِينِ الْحُرَاسِ لِجَمْعِ الضَّرَائِبِ ، الَّتِي يُبَدِّدُهَا النُّبَلَاءُ فِي مَلَذَاتِهِمْ ،  
دُونَ أَنْ يُفَكِّرُوا فِي تَأْمِينِ حُدُودِ الْبِلَادِ أَوْ حِمَايَتِهَا . أَمَّا الْفُقَرَاءُ  
أَمْثَلُنَا فَكَانُوا يَقُومُونَ بِالْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ الَّتِي لَا تُوفِّرُ لَهُمْ حَتَّى مَا  
يَسُدُّ رَمَقَهُمْ . وَكَانُوا هُمْ الْوَقُودَ الْمُنْتَظَرُ لِنَارِ التَّتَارِ . »

سَأَلَ كَرِيمُ الدِّينِ : « مَاذَا حَدَّثَ بَعْدَ ذَلِكَ ؟ »

أَجَابَ الْفَارِسُ : « أَوْشَكَ الْأَغْنِيَاءُ وَالنُّبَلَاءُ عَلَى الْفِرَارِ مِنَ الْبِلَادِ ،



وَالْهَرَبِ مِنْ وَجْهِ التَّتَارِ قَبْلَ وُصُولِهِمْ ، حَامِلِينَ مَا غَلَا ثَمَنُهُ وَخَفَّ حَمْلُهُ ، تَارِكِينَ الْبِلَادَ نَهْبَةً لِلْأَعْدَاءِ . وَلَكِنَّ وَالِدَكَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - صَاحٍ فِيهِمْ بِأَنَّهُ لَا يَلِيقُ أَنْ يَهْرَبَ إِنْسَانٌ مِنَ الْبِلَادِ الَّتِي أَطْعَمَتْهُ وَأَوَّتَهُ ، وَأَعْدَقَتْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْرَاتِهَا ، عِنْدَ ظَهْوَرِ الْأَعْدَاءِ . وَأَكْرَمَ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَمُوتَ دِفَاعًا عَنْ بِلَادِهِ وَشَرَفِهِ مِنْ أَنْ يَعِيشَ مُهَانًا مُغْتَرِبًا بَقِيَّةَ حَيَاتِهِ ، يُطَارِدُهُ الْعَارُ وَالذُّلُّ . وَكَانَ لَتِلْكَ النَّصِيحَةِ أَتْلُغُ الْأَثَرُ ؛ فَأَفَاقَ الْهَارِبُونَ لَأَنْفُسِهِمْ . وَفِي الْحَالِ اخْتَارُوا مِنْ بَيْنِهِمْ مَجْمُوعَةً مِنْ أَفْضَلِ الرُّجَالِ ، عَلَى رَأْسِهِمْ وَالِدَكَ ، لِقِيَادَةِ الدِّفَاعِ عَنِ الْبِلَادِ ، وَوَضَعَ الْخُطَطَ لِذَلِكَ .

اتَّسَعَتْ عَيْنَا كَرِيمِ الدِّينِ فِي ذُهُولٍ ، وَقَالَ : « إِنَّهُ لَمْ يُفَاخِرْ بِذَلِكَ أَمَامَ إِنْسَانٍ قَطُّ . وَلَكِنْ مَاذَا فَعَلَ أَبِي - رَحِمَهُ اللَّهُ - لِمُوَاجَهَةِ التَّتَارِ ؟ »

أَجَابَهُ الْفَارِسُ : « لَقَدْ أَمَرَ بِأَنْ يَتَبَرَّعَ الْأَغْنِيَاءُ بِنِصْفِ أَمْوَالِهِمْ ، فَجُمِعَتْ تِلْكَ الْأَمْوَالُ ، وَتَمَّ صَنْعُ أَسْلِحَةٍ بِهَا عَلَى عَجَلٍ . ثُمَّ أَمَرَ بِإِقَامَةِ سُورٍ هَائِلٍ يُحِيطُ بِشَوَاطِئِ الْبِلَادِ ، وَجَعَلَ فِي قَلْبِ السُّورِ أَبْرَاجًا وَقَلَاعًا مُحَصَّنَةً ، مِنَ الصَّخْرِ الَّذِي لَا تُؤَثِّرُ فِيهِ طَلَقَاتُ الْمَدَافِعِ . وَأَمَرَ بِصَنْعِ مَدَافِعٍ ضَخْمَةٍ ذَاتِ قُوَّاتٍ عَرِضَةٍ حُمِلَتْ إِلَى الْأَسْوَارِ وَالْقِلَاعِ ، بِحَيْثُ تَظْهَرُ قُوَّاتُهَا مِنْ فُتُوحَاتِ تِلْكَ الْأَسْوَارِ .

« ثُمَّ أَمَرَ بِحَفْرِ خَنْدَقٍ هَائِلٍ أَمَامَ الْأَسْوَارِ لِيَكُونَ شَرَكًا لِلْغَازِينَ . وَأَخِيرًا تَجَلَّتْ مَوَاهِبُهُ فِي الْقِتَالِ وَالْمُبَارَزَةِ ، عِنْدَمَا قَامَ بِتَدْرِيبِ عَشْرَاتِ الشُّبَّانِ الْأَقْوِيَاءِ عَلَى حَمْلِ السِّيفِ ، وَالْمُبَارَزَةِ وَالْقَاءِ السَّهَامِ ، فَبَرَعُوا فِي ذَلِكَ إِلَى أَقْصَى حَدٍّ . وَكُنْتُ أَنَا أَحَدَ هَؤُلَاءِ الشُّبَّانِ ، وَعَلَى يَدَيَّ وَالِدَكَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - تَعَلَّمْتُ كُلَّ فُنُونِ الْقِتَالِ .

قَالَ كَرِيمُ الدِّينِ دَهْشًا : « وَلَكِنْ مَا كَانَ عَشْرَاتِ الشُّبَّانِ لِيَسْتَطِيعُوا الْوُقُوفَ فِي وَجْهِ جَحَافِلِ التَّتَارِ ، مَهْمَا كَانَتْ شَجَاعَةً هَؤُلَاءِ الشُّبَّانِ وَيَسَّالَتْهُمْ .

هَزَّ الْفَارِسُ رَأْسَهُ وَقَالَ : « هَذَا صَحِيحٌ ، وَلَكِنْ لَمْ يَعْلَمْنَا رَأْسُ الثُّجَّارِ الْقِتَالِ إِلَّا لِنَكُونَ مُعَلِّمِينَ ، وَنَعْلَمَ بِدَوْرِنَا غَيْرَنَا . وَمَنْ كُنَّا نَعْلَمُهُمْ كَانُوا يَقُومُونَ بَعْدَهَا بِتَعْلِيمِ غَيْرِهِمْ فِي سِلْسِلَةٍ مُتَّصِلَةٍ ، أَخَذَتْ حَلَقَاتُهَا تَتَّسِعُ شَيْئًا فَشَيْئًا لِتَصِلَ إِلَى الْقَاعِدَةِ الْعَرِضَةِ لِشَعْبِنَا . وَخِلَالَ وَقْتِ قِيَاسِي كَانَ كُلُّ مَنْ يَصْلُحُ لِحَمْلِ السِّلَاحِ قَدْ نَعْلَمَ فُنُونِ الْقِتَالِ . وَقَدْ دَرَّبَ وَالِدَكَ النِّسَاءَ عَلَى التَّمْرِيزِ وَمُدَاوَاةِ الْجَرْحِ ، وَهَكَذَا لَمْ يَبْقَ إِنْسَانٌ فِي الْبِلَادِ دُونَ أَنْ تُوَكَّلَ لَهُ مَهْمَةٌ مُحَدَّدَةٌ سَاعَةَ الْحَرْبِ . وَعِنْدَمَا أَقْبَلَتْ جَحَافِلُ التَّتَارِ فِي سَفْنِهِمْ الَّتِي لَا حَصَرَ لَهَا ، كُنَّا مُتَاهِبِينَ لِصَدِّهِمْ .



هَتَفَ كَرِيمُ الدِّينِ فِي حِمَاسٍ : « أَخْبِرْنِي أَيُّهَا الْفَارِسُ ، كَيْفَ دَارَتْ تِلْكَ الْمُوقَعَةُ الْعَظِيمَةُ ؟ »

قَالَ الْفَارِسُ : « كَانَ يَوْمًا رَهيبًا ، خِلْتُ أَنْ شَمْسَهُ لَنْ تَغْرُبَ ؛ لِكثْرَةِ مَا شَاهَدْتُهُ خِلَالَهُ مِنْ أَهْوَالٍ ؛ فَقَدْ أَقْبَلَ التَّتَارُ وَهُمْ يَظُنُّونَ أَنْفُسَهُمْ ذَاهِبِينَ إِلَى نَزْهَةٍ ، فَفَاجَأَنَاهُمْ بِوَابِلٍ مِنْ حِجَارَةِ الْمَنْجَنِيقِ ، الَّتِي سَقَطَتْ فَوْقَ سُفْنِهِمْ فَأَحْرَقَتْ بَعْضَهَا ، وَانْطَلَقَتْ قَذَائِفُ الْمَدَافِعِ مِنْ فُتُوحَاتِ الْأَسْوَارِ وَالْقِلَاعِ لِتُدْمِرَ بَعْضًا آخَرَ مِنْ تِلْكَ السُّفُنِ ؛ فَعَمَّ الاضطرابُ بَيْنَ صُفُوفِ التَّتَارِ ، وَعَلَتْ صِيحَاتُهُمْ وَصَرَاحُهُمْ ، وَارْتَفَعَتْ أَلْسِنَةُ اللَّهَبِ فَوْقَ سَطْحِ الْمَاءِ ، كَأَنَّهَا الْجَحِيمُ . »

تَسَاءَلَ كَرِيمُ الدِّينِ فِي فُضُولٍ : « وَهَلِ انْسَحَبَ التَّتَارُ مِنْ تِلْكَ الْمُبَاغَةِ غَيْرَ الْمُتَوَقَّعَةِ ؟ »

أَجَابَهُ الْفَارِسُ : « لَا ؛ فَقَدْ أَغْضَبَهُمْ مَا حَدَثَ ، وَأَوْصَلَهُمْ إِلَى حَاقَةِ الْجُنُونِ ؛ فَقَدْ كَانُوا يُيْمِنُونَ أَنْفُسَهُمْ بِأَسْلَابٍ وَغَنَائِمٍ لَا حَصَرَ لَهَا ، فَتَارَتْ نَائِرَتُهُمْ حِينَ وَجَدُوا النَّارَ وَالْمَوْتَ فِي انْتِظَارِهِمْ ، فَقَفَزَ عَشْرَاتُ الْأَلْفِ مِنْ سُفْنِهِمْ ، وَسَبَّحُوا إِلَى الشَّاطِئِ بِسُيُوفِهِمْ وَرِمَاحِهِمْ ، فَوَاجَهَهُمُ الْخَنْدَقُ الضَّخْمُ . »

وَعِنْدَمَا حَاولُوا عُبُورَهَا أَمَرَ وَالِدُكَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - بِإِطْلَاقِ الرِّبْتِ

الْمَغْلِي مِنْ أُنَائِبٍ خَاصَّةٍ كُنَّا قَدْ جَهَّزْنَاهَا لِذَلِكَ ، تَبْدَأُ قُوَّاهُهَا مِنْ دَاخِلِ الْأَسْوَارِ ، وَتَنْتَهِي فِي قَلْبِ الْحُفْرَةِ الْكَبِيرَةِ ، فَسَقَطَ التَّتَارُ دَاخِلَ ذَلِكَ الشَّرْكِ الْمَشْتَعِلِ ، وَمَاتَ مِنْهُمْ عَدَدٌ كَبِيرٌ . أَمَّا مَنْ تَمَكَّنَ مِنَ النُّجَاةِ وَاقْتَرَبَ مِنَ الْأَسْوَارِ وَحَاولَ اعْتِلَاءَهَا ، فَقَدْ وَاجَهَتْهُمْ أَلْفُ الْفُرْسَانِ وَالْمُقَاتِلِينَ ، وَكُنْتُ أَنَا وَاحِدًا مِنْهُمْ . وَشَارَكَ وَالِدُكَ فِي الْقِتَالِ الَّذِي اسْتَمَرَ طَوَالَ نَهَارٍ كَامِلٍ ، انْتَهَى بِهَزِيمَةِ التَّتَارِ ، وَهَرَبَ مَنْ بَقِيَ حَيًّا مِنْهُمْ ، وَتَرَكَوا خَلْفَهُمْ مِائَاتِ السُّفُنِ ؛ فَاسْتَوْلَيْنَا عَلَيْهَا وَأَعَدْنَا إِصْلَاحَهَا وَتَشْغِيلَهَا ؛ فَصَارَ لِبِلَادِنَا أُسْطُولٌ ضَخْمٌ مِنَ السُّفُنِ الْحَرَبِيَّةِ ، فَاحْتَفَظْنَا بِبَعْضِهَا كَمَا هِيَ لِحِمَايَةِ شَوَاطِئِ الْبِلَادِ ، وَحَوَّلْنَا بَعْضَهَا الْآخَرَ إِلَى سُفُنٍ تِجَارِيَّةٍ ، صَارَتْ تَجُوبُ الْبِلَادَ وَتُتَاجَرُ بِالْبَضَائِعِ وَتَحْمِلُ الْخَيْرَ الْعَمِيمَ لِبِلَادِنَا ، قَتَمَ تَوَزِيْعُهُ عَلَى كُلِّ السُّكَّانِ بِالْعَدْلِ وَالْقِسْطِ . أَمَّا التَّتَارُ فَلَمْ يُحَاولُوا غَزْوَ بِلَادِنَا ثَانِيَةً ، بَعْدَ أَنْ قُمْنَا بِدَفْنِ قَتْلَاهُمْ دَاخِلَ حُفْرَةِ الرِّبْتِ الْمَغْلِي ، وَأَعَدْنَا رَدْمَهَا ، فَصَارَتْ شَاهِدًا عَلَى مَا حَلَّ بِهَؤُلَاءِ الْغَزَاةِ الْمُتَوَحِّشِينَ . »

قَالَ كَرِيمُ الدِّينِ فِي صَوْتٍ مُتَوَتِّرٍ : « مَاذَا فَعَلَ أَبِي بَعْدَ هَزِيمَةِ التَّتَارِ ؟ »

أَجَابَهُ الْفَارِسُ : « إِنَّ وَالِدَكَ لَمْ يَكُنْ طَامِعًا فِي جَاهٍ أَوْ سُلْطَةٍ ؛ فَقَدْ رَحَلَ عَنْ بِلَادِنَا وَعَادَ إِلَى مُمَارَسَةِ عَمَلِهِ رَئِيسًا لِلتِّجَارِ ؛ فَخَرَجَ



كُلُّ شَعْبِنَا لَوْدَاعِهِ فِي مَوْكِبٍ عَظِيمٍ . وَالْآنَ اسْتَقَرَّتِ الْأَحْوَالُ فِي  
بِلَادِنَا وَعَمَّهَا الرِّخَاءُ ، وَلَمْ يَعُدْ فِيهَا مُعَدِّمُونَ أَوْ فَقَرَاءُ بِفَضْلِ  
حِكْمَةِ رَئِيسِ التُّجَّارِ ، وَلَيْسَ هُنَاكَ غَيْرُ قَلَّةٍ مِنَ النُّصُوصِ الَّذِينَ  
يَفِدُونَ إِلَيْنَا مِنْ بِلَادٍ أُخْرَى ، أَوْ مِنَ الْقَرَّاصِينَةِ الَّذِينَ يَهْرَبُونَ مِنْ  
أَحْكَامِ الْإِعْدَامِ فِي بِلَادِهِمْ ، وَيَخْتَفُونَ فِي بِلَادِنَا لِيُمَارِسُوا السَّرِقَةَ ،  
كَمَا حَدَثَ مَعَكَ ؛ وَلِهَذَا صِرْتُ أَخْرَجُ كُلَّ لَيْلَةٍ لِأَتَفَقَّدَ حَالَةَ  
الْأَمْنِ فِي الْبِلَادِ ، وَأَصْطِيدُ الْخَارَجِينَ عَلَى الْقَانُونِ ، وَحِمَايَةِ  
الْأَبْرِيَاءِ . وَثَقُّ بِأَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَشْرَارَ الَّذِينَ حَاوَلُوا قَتْلَكَ ، سَيَقَعُونَ فِي  
قَبْضَةِ الْعَدَالَةِ فِي أَقْرَبِ وَقْتٍ .

أَطْرَقَ كَرِيمُ الدِّينِ بِرَأْسِهِ ، وَشَحَبَ وَجْهَهُ ، وَقَالَ : « إِنِّي شَاكِرٌ  
صَنِيعَكَ ، يَا سَيِّدِي ، وَإِنْقَادُكَ لِحَيَاتِي . وَلَكِنِّي لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّ  
أَبِي كَانَ بَطْلًا إِلَى هَذَا الْحَدِّ ؛ فَلَمْ يَكُنْ يُحِبُّ الْحَدِيثَ عَنْ نَفْسِهِ  
قَطُّ . وَكَانَ دَائِمَ السَّفَرِ وَالتَّنَقُّلِ ؛ وَرُبَّمَا لِذَلِكَ لَمْ يَتَحَّ لِي أَنْ أَعْرِفَ  
مِنْهُ كُلَّ تِلْكَ الْقِصَصِ وَالْبَطُولَاتِ . »

زَوَى الْفَارِسُ مَا بَيْنَ حَاجِيَّتِهِ ، وَقَالَ دَهْشًا : « وَلَكِنِّي أَتَعَجَّبُ فِي  
الْوَقْتِ نَفْسِهِ : كَيْفَ تَكُونُ ابْنُ رَئِيسِ التُّجَّارِ ، هَذَا الْبَطْلُ الْمِقْدَامُ ،  
وَتَجْهَلُ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ كَيْفِيَّةَ امْتِشَاقِ السَّيْفِ وَالْمُبَارَزَةِ ، وَالِدِّفَاعِ  
عَنْ نَفْسِكَ ؟ »

عَضَّ كَرِيمُ الدِّينِ شَفَتَيْهِ فِي أَسَى وَنَدَمٍ ، وَلَمْ يَنْطِقْ بِشَيْءٍ ،  
وَتَمَنَّى لَوْ عَادَتِ الْأَيَّامُ الضَّائِعَةُ .

رَبَّتَ الْفَارِسُ عَلَى كَتِفِهِ قَائِلًا : « مِنْ الْغَدِ سَوْفَ أَعْلَمُكَ كُلَّ  
فُنُونِ الْقِتَالِ وَالْمُبَارَزَةِ وَرَمَى السَّهَامِ ؛ فَهَذَا أَقَلُّ مَا يُمَكِّنُ أَنْ أَقْدِمَهُ  
لِابْنِ الرَّجُلِ الَّذِي عَلَّمَنِي كُلَّ هَذِهِ الْمَهَارَاتِ ، وَشَارَكَ فِي إِنْقَادِ  
بِلَادِي مِنَ الْأَعْدَاءِ . »

فَاضَتْ عَيْنَا كَرِيمِ الدِّينِ بِالْذُّمُوعِ ، وَعَانَقَ الْفَارِسُ فِي امْتِنَانٍ  
عَمِيقٍ ، ثُمَّ نَامَ قَرِيرَ الْعَيْنِ .

فِي الصَّبَاحِ وَجَدَ مَلَابِسَ جَدِيدَةً نَظِيفَةً فِي انْتِظَارِهِ ، فَاعْتَسَلَ ثُمَّ  
تَنَاوَلَ إِفْطَارًا شَهِيًا . وَبَدَأَتْ بَعْدَ قَلِيلٍ دُرُوسُ تَعْلَمِ كَرِيمِ الدِّينِ فُنُونِ  
الْقِتَالِ وَالْمُبَارَزَةِ وَرُكُوبِ الْخَيْلِ .

كَانَتْ الدَّرُوسُ شَاقَّةً ، وَلَكِنَّ كَرِيمَ الدِّينِ أَخْفَى تَعَبَهُ وَبَدَّلَ كُلَّ  
مَجْهُودِهِ ، وَخِلَالَ وَقْتِ قِيَاسِي أَجَادَهَا ، فَصَارَ يُصَارِعُ الْفَارِسَ  
صِرَاعَ النَّدِّ لِلْنَدِّ ، بَلْ كَانَ يَتَفَوَّقُ عَلَيْهِ أحيانًا .

قَالَ الْفَارِسُ ضَاحِكًا : « لَقَدْ فَاقَ التَّلْمِيزُ أَسَاتِذَهُ . »

قَالَ كَرِيمُ الدِّينِ ، فِي حَيَاءٍ : « أَرْجُو أَلَّا يُغْضِبَكَ ذَلِكَ ، يَا  
سَيِّدِي . »



ضَحِكَ الْفَارِسُ أَكْثَرَ ، وَقَالَ : « كَيْفَ يُغْضِيَنِي ذَلِكَ ، وَهُوَ  
نَفْسُ مَا حَدَّثَ لِي مَعَ وَالِدِكَ ؟ »

تَمَّتْ كَرِيمُ الدِّينِ قَائِلًا : « رَحِمَ اللَّهُ وَالِدِي ؛ فَإِنِّي أَدِينُ لَهُ  
بِأَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ جِدًّا . »

قَالَ الْفَارِسُ : « وَالْآنَ بَعْدَ أَنْ تَتَأَوَّلَ عِدَاءَنَا ، سَتَكُونُ ثَمَّةً  
مُفَاجَأَةً فِي أَنْتِظَارِكَ . »

اِغْتَسَلَ كَرِيمُ الدِّينِ ، وَتَأَوَّلَ طَعَامَهُ وَهُوَ قَلِقَ بِشَأْنِ تِلْكَ الْمَفَاجَأَةِ  
الَّتِي حَدَّثَهُ عَنْهَا الْفَارِسُ ، وَفُوجِيَ بِدُخُولِ بَعْضِ الْحُرَّاسِ الْمُدْجَّجِينَ  
بِالسَّلَاحِ ، وَقَدْ أَمْسَكُوا بِرَقَبَةِ اللُّصُوصِ الَّذِينَ هَاجَمُوهُ وَسَرَقُوا مَالَهُ .

أَدَّى أَحَدُ الْحُرَّاسِ التَّحِيَّةَ لِلْفَارِسِ ، قَائِلًا : « لَقَدْ أَمْسَكْنَا  
بِاللُّصُوصِ ، يَا سَيِّدِي الْحَاكِمِ . »

لَمْ يُصَدِّقْ كَرِيمُ الدِّينِ مَا سَمِعَهُ ، وَتَطَلَّعَ إِلَى الْفَارِسِ ، الَّذِي  
قَالَ لِلْحَارِسِ : « خُذُوهُمْ إِلَى الْقَاضِي الْآنَ ؛ لِنَنْظُرَ فِي أَمْرِهِمْ . »

أَدَّى الْحُرَّاسُ التَّحِيَّةَ وَأَنْصَرَفُوا ، وَالتَفَتَ كَرِيمُ الدِّينِ ذَاهِلًا إِلَى  
الْفَارِسِ ، وَسَأَلَهُ : « هَلْ أَنْتَ حَاكِمُ هَذِهِ الْبِلَادِ ؟ »

أَجَابَهُ الْفَارِسُ فِي بَسَاطَةٍ : « مَا الْعَجِيبُ فِي ذَلِكَ ؟ لَقَدْ تَوَلَّيْتُ  
مَسْئُولِيَّاتٍ كَثِيرَةً ، وَتَدَرَّجْتُ فِي الْمَنَاصِبِ مِنْ قَائِدِ لِلْجَيْشِ وَالشُّرْطَةِ

إِلَى وَزِيرٍ ، حَتَّى صِرْتُ مُؤَهَّلًا لِأَنْ أَكُونَ حَاكِمَ الْبِلَادِ . »

قَالَ كَرِيمُ الدِّينِ : « لَقَدْ عَلَّمْتَنِي الْكَثِيرَ ، يَا سَيِّدِي ، وَسَادِينَ  
بِفَضْلِكَ طَوَالَ عُمْرِي . »

أَجَابَهُ الْحَاكِمُ : « بَلْ عَلَيْكَ أَنْ تَدِينَ لِوَالِدِكَ رَئِيسَ التُّجَّارِ ،  
رَحِمَهُ اللَّهُ ؛ فَهُوَ الَّذِي عَلَّمَنَا جَمِيعًا . »

نَهَضَ كَرِيمُ الدِّينِ قَائِلًا : « إِنِّي أَشْكُرُ لَكَ كُلَّ مَا قَدَّمْتَهُ لِي ،  
يَا سَيِّدِي . وَلَكِنْ اسْمَحْ لِي بِالرَّحِيلِ . »

« إِلَى أَيْنَ ؟ »

« ثَمَّةَ رَحْلَةٍ يَجِبُ أَنْ أَتِمَّهَا إِلَى جَبَلِ الْحِكْمَةِ ؛ لِأَقَابِلَ النَّاسِكِ  
الْمَتَعَبِّدِ الَّذِي يَعِيشُ هُنَاكَ ، فَلِي طَلَبٌ خَاصٌّ عِنْدَهُ . »

قَطَّبَ الْحَاكِمُ الْفَارِسُ حَاجِيَّهَ ، وَقَالَ : « إِنِّي لَمْ أَسْأَلْكَ لِمَذَا  
تُرِيدُ الذَّهَابَ إِلَى جَبَلِ الْحِكْمَةِ ، وَلَكِنْ كُلُّ مَا يُمَكِّنُنِي قَوْلُهُ لَكَ  
هُوَ أَنَّ هَذِهِ الرَّحْلَةَ سَاقَةٌ مُهْلِكَةٌ ، لَمْ يَنْجُ مِنْهَا إِنْسَانٌ ؛ فَعَلَيْكَ أَوَّلًا  
أَنْ تَجْتَازَ أَرْضَ الْغِيلَانِ الْعَمِيَاءِ ، وَهِيَ مِنَ الْمَرْدَةِ الْمُتَوَحِّشَةِ الَّتِي لَا  
تَسْمَحُ لِأَحَدٍ بِاجْتِيَازِ أَرْضِهَا ، وَهِيَ تَلْتَهُمْ كُلُّ مَنْ يَسْقُطُ فِي  
أَيْدِيهَا . فَإِذَا نَجَوْتَ مِنْهَا فَعَلَيْكَ أَنْ تُوَصِلَ السَّفَرَ جِهَةَ الْغَرْبِ  
لِشَهْرَيْنِ ، وَبَعْدَهَا سَيَكُونُ عَلَيْكَ اجْتِيَازُ أَرْضِ الْأَقْزَامِ ، الْبَاحِثِينَ عَنْ



الحِكْمَةُ ، قَبْلَ أَنْ تَصِلَ إِلَى جَبَلِ الْحِكْمَةِ .

قَالَ كَرِيمُ الدِّينِ فِي إِصْرَارٍ : « وَلَكِنِّي عَلَى كُلِّ حَالٍ سَأَحَاوِلُ ،  
يَا سَيِّدِي . فَلَنْ أَتَرَجَعَ بَعْدَ أَنْ قَطَعْتُ كُلَّ هَذِهِ الْمَسَافَةِ ، وَقَابَلْتُ  
كُلَّ هَذِهِ الْمَصَاعِبِ وَالْمَشَاقِّ . »

رَبَّتَ الْحَاكِمُ عَلَى كَتِفِهِ قَائِلًا : « أَبْقَ مَعِيَ الْيَوْمَ ، وَارْحَلْ غَدًا . »

وَأَفَقَ كَرِيمُ الدِّينِ ، وَانْقَضَى الْيَوْمُ وَكَرِيمُ الدِّينِ يَتَأَهَّبُ لِلرَّحِيلِ .  
وَفِي الصَّبَاحِ اسْتَقْبَلَهُ الْحَاكِمُ الْفَارِسُ قَائِلًا : « هَا هِيَ ذِي الْأَلْفِ  
دِينَارٍ الذَّهَبِيَّةُ الَّتِي سَطَا عَلَيْهَا اللَّصُوصُ ، قَدْ رَدَّتْ إِلَيْكَ ثَانِيَةً . »

رَفَضَ كَرِيمُ الدِّينِ أَنْ يَمْسَهَا قَائِلًا : « وَلَكِنِّي لَا أَقْبَلُ عِوَضًا  
مِنْ أَحَدٍ ، يَا سَيِّدِي . »

قَالَ الْحَاكِمُ : « مَنْ قَالَ إِنَّ هَذَا الْمَالَ عِوَضٌ عَنْ مَالِكَ ؟ فَهَذَا  
مَالُكَ ، وَقَدْ أَمَرَ الْقَاضِي بِسَجْنِ اللَّصُوصِ ، وَتَعْوِضِكَ عَمَّا سَرَقَهُ ،  
فَصَادَرْنَا كُلَّ أَمْلاكِهِمْ ، وَبَعْنَاهَا بِالْأَمْسِ ، وَهَذَا هُوَ ثَمْنُهَا ؛ وَلِهَذَا  
طَلَبْتُ مِنْكَ الْبَقَاءَ حَتَّى الصَّبَاحِ ، قَبْلَ رَحِيلِكَ . »

قَبِلَ كَرِيمُ الدِّينِ الْمَالَ شَاكِرًا ، فَقَالَ الْحَاكِمُ : « وَالْآنَ ، هَلْ  
تَقْبَلُ مِنِّي هَدِيَّةً مُتَوَاضِعَةً : إِنَّهَا جَوَادِي الْأَشْهَبُ ؛ فَسَتَحْتَاجُ إِلَيْهِ  
فِي رَحْلَتِكَ ، وَهُوَ جَوَادٌ لَا مَثِيلَ لَهُ فِي سُرْعَتِهِ وَقُوَّةِ تَحْمُلِهِ . وَقَدْ





وَضَعْتُ فَوْقَ سَرِيحِهِ صُنْدُوقًا لِلْكِتَابِ ، فَقَدْ تَحْتَاجُهَا فِي رِحْلَتِكَ .  
فَهَذِهِ الْكِتَابُ ذِكْرِي عَزِيزَةٌ مِنْ وَالِدِكَ ، مَنَحَهَا لِي ذَاتَ يَوْمٍ ؛  
فَأَفَادَتْنِي كَثِيرًا . وَأَنَا أَرُدُّهَا إِلَيْكَ ، فَقَدْ تَفِيدُكَ كَمَا أَفَادَتْنِي .

أَجَابَهُ كَرِيمُ الدِّينِ : « شُكْرًا لَكَ ، يَا سَيِّدِي الْحَاكِمُ ، عَلَى  
هَدِيَّتِكَ . وَإِنْ كُنْتُ لَا أَرَى فَائِدَةً لِهَذِهِ الْكِتَابِ إِلَّا أَنَّنِي لَنْ أَرُدُّهَا ؛  
فَقَدْ تَكُونُ لَهَا فَائِدَةٌ لَا أَدْرِيهَا .

وَعِنْدَمَا عَرَضَ الْحَاكِمُ أَنْ يَصْطَحِبَ كَرِيمَ الدِّينِ بَعْضَ الْفُرْسَانِ  
لِحِمَايَتِهِ فِي رِحْلَتِهِ ؛ رَفَضَ ذَلِكَ ، وَقَالَ لَهُ : « بَعْدَ أَنْ عَلَّمْتَنِي فُنُونَ  
الْقِتَالِ وَالْمُبَارَزَةِ وَالِدِّفَاعِ عَنِ النَّفْسِ ، فَإِنَّنِي لَمْ أَعُدْ بِحَاجَةٍ إِلَى  
حِمَايَةٍ ، يَا سَيِّدِي ، وَعَلَيَّ أَنْ أَعْتَمِدَ عَلَى نَفْسِي تَمَامًا ، كَمَا كَانَ  
يَفْعَلُ وَالِدِي ، رَحِمَهُ اللَّهُ .

رَبَّتَ الْحَاكِمُ عَلَى كَتِفِهِ ، وَقَالَ لَهُ : « هَذَا هُوَ مَا كُنْتُ أَنْتَظِرُهُ  
مِنْكَ أَيُّهَا الشَّابُّ ؛ فَأَنْتَ حَقًّا ابْنُ رَئِيسِ التُّجَّارِ حَكِيمِ الدِّينِ .

خَرَجَ الْحَاكِمُ لِدَوَاعِ كَرِيمِ الدِّينِ ، وَأَشَارَ لَهُ جِهَةَ الشَّرْقِ  
قَائِلًا : « سِرْ فِي هَذَا الْإِتْجَاهِ ، وَسَتَبْلُغَ أَرْضَ الْغِيلَانِ الْعَمِيَاءِ بَعْدَ  
ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ بِتَمَامِهَا .

شَكَرَهُ كَرِيمُ الدِّينِ ، وَلَكَزَ الْجَوَادَ الْأَشْهَبَ ، فَأَنْطَلَقَ بِهِ جِهَةَ  
الشَّرْقِ كَأَنَّهُ الرِّيحُ الْعَاصِفُ .

## الفصل السابع أَرْضُ الْغِيلَانِ الْعَمِيَاءِ

عَبَّرَ كَرِيمُ الدِّينِ فِي رِحْلَتِهِ إِلَى أَرْضِ الْغِيلَانِ مَفَاوِزَ وَوَهَادًا ،  
وَمَرَّ بِجِبَالٍ وَتَلَالٍ ، وَاجْتَاَزَ بُحَيْرَاتٍ وَأَنْهَارًا ، حَتَّى انْصَرَمَتِ الْأَشْهُرُ  
الثَّلَاثَةُ كَامِلَةً . وَكَانَ يَشْغُلُ نَفْسَهُ أَحْيَانًا ، فِي أَوْقَاتِ رَاحَتِهِ وَتَوَقُّفِهِ ،  
بِقِرَاءَةِ الْكِتَابِ الَّتِي مَنَحَهَا لَهُ الْحَاكِمُ الْفَارِسُ . وَكَانَتْ عَنْ طَرُقِ  
الزَّرَاعَةِ وَصِنَاعَةِ الْأَوَانِي وَالْغَزْلِ وَالنَّسْجِ وَتَشْيِيدِ الْمَسَاكِينِ ، فَلَمْ يَهْتَمُّ  
كَرِيمُ الدِّينُ بِهَا ، وَأَعَادَهَا إِلَى مَكَانِهَا . وَخِلَالَ رِحْلَتِهِ صَادَفَ  
صِعَابًا جَمَّةً ؛ فَعَبَّرَ صَحْرَاوَاتٍ قَاحِلَةً يَابِسَةً ، لَمْ يُنْجِ مِنْهَا غَيْرُ  
مَعْرِفَتِهِ بِأَسْرَارِهَا ، وَسُلُوكِهِ الطَّرِيقَ الصَّحِيحَ لِعُبُورِهَا ، مُسْتَفِيدًا بِمَا  
عَلَّمَهُ لَهُ شَيْخُ الْقَافِلَةِ ، صَدِيقُ وَالِدِهِ .

وَاشْتَرَى جَمَلًا إِلَى جِوَارِ جَوَادِهِ ، وَصَارَ يُسَافِرُ لَيْلًا وَيَرْتَاحُ نَهَارًا .  
ثُمَّ عَبَّرَ مُحِيطًا هَائِجًا بِسَفِينَةٍ صَغِيرَةٍ قَادَهَا فِي بَرَاعَةٍ ، حَتَّى وَصَلَ





البرّ سالماً ، وَاَعَادَ امْتِطَاءَ جَوَادِهِ اَيَّامًا عَدِيدَةً دُونَ كَلَلٍ .

وَاٰخِرًا بَدَتْ عَلَى الْبُعْدِ اَرْضٌ جُرْدَاءُ قَاحِلَةٌ ، يَسْكُنُهَا الصَّمْتُ ، وَيَغْلُقُهَا الْغُمُوضُ ، وَتَسْوِدُهَا الرَّهْبَةُ ، وَيَتَخَلَّلُهَا نَهْرٌ صَغِيرٌ عَذْبٌ الْمِيَاهِ ، يَنْتَهِي عِنْدَ غَايَةِ تَبَدُّو قَاحِلَةٍ ، اشْجَارُهَا يَابِسَةٌ بِلَا ثَمَرٍ وَلَا زَرْعٍ .

تَرَجَّلَ كَرِيمُ الدِّينِ عَنْ جَوَادِهِ ، وَقَالَ لِنَفْسِهِ : « هَذِهِ هِيَ اَرْضُ الْغِيْلَانِ دُونَ شَكٍّ ؛ فَإِنَّ مَنَظَرَهَا مُقْبِضٌ ، وَشَكْلُهَا مُخِيفٌ . وَلَكِنْ أَيْنَ اخْتَفَى سُكَّانُهَا ، وَهُمْ مِنَ الْمَرَدَةِ الَّذِينَ يَصْعَبُ تَوَارِيهِمْ ؟ »

وَفَجَاةً شَقَّتِ السُّكُونُ صَرْخَةً حَادَّةً عَالِيَةً مُخِيفَةً ، كَأَنَّهَا صَرْخَةُ عَفْرِيتٍ أَوْ جَانٍّ ، فَاهْتَزَّتْ كَرِيمُ الدِّينِ مِنَ الرَّعْبِ ؛ إِذْ شَاهَدَ أَحَدَ الْغِيْلَانِ يَظْهَرُ مِنْ فَتْحَةِ كَهْفٍ فِي جَبَلٍ هَائِلٍ الارتفاعِ ، كَأَنَّهُ يَمَسُّ السُّحَابَ . وَكَانَ طَوْلُ هَذَا الْغُولِ يَزِيدُ عَلَى خَمْسَةِ أَمْتَارٍ ، وَلَهُ شَكْلٌ بَشَعٌ وَجَسَدٌ ضَخْمٌ مَكْسُوٌّ بِالشَّعْرِ ، وَأَصَابِعُهُ مِثْلُ الْمَخَالِبِ . كَمَا كَانَتْ عَيْنَاهُ مُغْلَقَتَيْنِ ، وَأُذُنَاهُ كَبِيرَتَيْنِ ، وَقَدَمَاهُ تَدْبَانِ عَلَى الْأَرْضِ كَمَا لَوْ كَانَتَا قَدَمَي فِيلٍ . وَلَا يَسْتَرُهُ غَيْرُ بَعْضِ أُورَاقِ الْأَشْجَارِ فِي شَكْلِ مِئْزَرٍ يَسْتُرُ الْجُزْءَ الْأَسْفَلَ مِنْهُ .

هَمَسَ كَرِيمُ الدِّينِ لِنَفْسِهِ : « لَا بُدَّ أَنْ الْغِيْلَانِ تَخْتَفِي دَاخِلَ



هَذَا الْكَهْفِ ، وَتَسْرِعُ بِالْخُرُوجِ ، وَتَقْطَعُ عَلَى الطَّرِيقِ ! وَالْأَفْضَلُ  
أَنْ أَبَادِرَ بِالْهَرَبِ وَتَجَاوِزَ هَذَا الْجَبَلَ .

وَقَفَزَ إِلَى جَوَادِهِ ، وَلَكَزَهُ بِقَدَمَيْهِ صَائِحًا : « فَلْتَسْرِعْ  
بِالرَّكُضِ ، يَا أَشْهَبُ ، قَبْلَ أَنْ نَسْقُطَ فِي أَيْدِي تِلْكَ الْغِيلَانِ  
الْمُتَوَحِّشَةِ ، فَلَنْ تَأْخُذَهُمْ بِنَا رَحْمَةً وَلَا شَفَقَةً .

انْطَلَقَ الْجَوَادُ كَالسَّهْمِ ، وَانْدَفَعَ بِكُلِّ سُرْعَتِهِ جِهَةَ الشَّرْقِ ،  
وَلَكِنْ وَمِنْ وَرَاءِ الْجَبَلِ ظَهَرَ عَدَدٌ آخَرٌ مِنَ الْغِيلَانِ ، سَدَّ الطَّرِيقَ أَمَامَ  
كَرِيمِ الدِّينِ ، فَجَذَبَ لِجَامِ جَوَادِهِ ، وَانْدَفَعَ فِي الْإِتْجَاهِ الْمَعَاكِسِ  
نَاحِيَةَ الْغَرْبِ ؛ صَوَّبَ الْغَايَةَ الْبَعِيدَةَ .

وَلَكِنْ عَدَدًا آخَرَ مِنَ الْغِيلَانِ ظَهَرَ مِنْ قَلْبِ الْغَايَةِ ، وَسَدَّ الطَّرِيقَ  
عَلَى كَرِيمِ الدِّينِ ، فَتَرَاوَجَعَ مُحَاوِلًا الْفِرَارَ مِنْ أَيِّ إِتْجَاهٍ ، وَلَكِنَّهُ  
شَاهَدَ الْغِيلَانَ تُحِيطُ بِهِ فِي شَكْلِ دَائِرَةٍ ، فَهَتَفَ فِي سَخَطٍ :  
« كَيْفَ تَمَكَّنْتَ هَذِهِ الْغِيلَانِ مِنْ رُؤْيِي وَحِصَارِي بِمِثْلِ تِلْكَ  
الصُّورَةِ ، وَهِيَ لَا تَبْصُرُ ؟ »

وَحَاوَلَ كَرِيمُ الدِّينِ أَنْ يَفْتَحَ ثُغْرَةً فِي وَسْطِ دَائِرَةِ الْغِيلَانِ ،  
فَصَوَّبَ أَحَدَ سِهَامِهِ إِلَى غُولٍ قَرِيبٍ ، وَأَطْلَقَهُ ، وَلَكِنْ السَّهْمُ تَكَسَّرَ  
فَوْقَ صَدْرِ الْغُولِ ، كَأَنَّمَا اصْطَلَمَ بِحَجَرٍ ، وَلَمْ يَبْدُ عَلَى الْغُولِ أَيُّ

تَأَثَّرٍ . وَجَرَّبَ كَرِيمُ الدِّينِ سَهْمًا ثَانِيًا وَثَالِثًا دُونَ فَائِدَةٍ ، فَتَوَقَّفَ عَنْ  
إِطْلَاقِ السَّهَامِ ، وَهَمَسَ لِنَفْسِهِ : « إِنَّ جُلُودَ هَذِهِ الْغِيلَانِ صُلْبَةٌ ،  
وَلَنْ يُفِيدَ قِتَالِي لَهَا شَيْءٌ .

وَتَبَّهَ عِنْدَ وَقُوفِهِ سَاكِنًا بِجَوَادِهِ إِلَى أَنَّ الْغِيلَانَ سَكَنَتْ مَكَانَهَا  
أَيْضًا ، وَهِيَ تَهْزُ رُءُوسَهَا فِي كُلِّ إِتْجَاهٍ ؛ مُحَاوِلَةً التَّصْنُّتِ بِأَذَانِهَا  
الْكَبِيرَةِ ، فَأَذْرَكَ عَلَى الْفَوْرِ أَنَّهَا لَمْ تَرَهُ ، وَلَكِنَّهَا سَمِعَتْ صَوْتَهُ ،  
وَرَكُضَ جَوَادِهِ ، وَأَنَّهَا تَسْتَعْمِلُ أَذَانَهَا الْكَبِيرَةَ فِي تَتَبُعِهِ ، بَدَلًا مِنْ  
عُيُونِهَا ، وَأَنَّ الطَّبِيعَةَ الَّتِي حَرَمَتْ تِلْكَ الْغِيلَانَ مِنَ الْبَصَرِ - مَنَحَتْهَا  
أَذَانًا كَبِيرَةً قَادِرَةً عَلَى التَّلْقَاطِ أَوْهَنِ الْأَصْوَاتِ .

وَفِي الْحَالِ وَضَعَ كَرِيمُ الدِّينِ خُطَّةً لِلنَّجَاةِ مِنَ الْغِيلَانِ ، فَتَرَجَّلَ  
عَنْ جَوَادِهِ فِي سُكُونٍ ، وَرَبَّتْ فَوْقَ مَعْرِفَتِهِ ، وَهَمَسَ لَهُ بِصَوْتٍ  
خَفِيفٍ : « عَلَيْكَ بِالرَّكُضِ جِهَةَ الشَّرْقِ ، يَا أَشْهَبُ ، مُثِيرًا أَكْبَرَ  
قَدَرٍ مِنَ الضُّجَّةِ ، وَسَأَلَحْتُ بِكَ دُونَ أَنْ أُحْدِثَ صَوْتًا ، وَخَذَارَ أَنْ  
يَمْسُكَ هَؤُلَاءِ الْمُتَوَحِّشُونَ بِسَوْءٍ .

حَمَحَمَ الْجَوَادُ الدَّكِيَّ ، وَقَدْ فَهِمَ مَا قَالَهُ صَاحِبُهُ ، وَدَقَّ الْأَرْضَ  
بِحَوَافِرِهِ ، ثُمَّ انْطَلَقَ جِهَةَ الشَّرْقِ مُثِيرًا أَعْلَى ضَجَّةٍ مُمَكِّنَةٍ ،  
فَانْدَفَعَتِ الْغِيلَانُ خَلْفَهُ لِتَسُدَّ أَمَامَهُ الطَّرِيقَ ، وَلَكِنْ الْجَوَادُ الدَّكِيُّ



أَخَذَ يُحَاوِرُهَا وَيَقْفِزُ فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ لِلْهَرَبِ مِنْهُمْ . وَبَقْفَزَةٍ بَارِعَةٍ  
تَخْطِي الْجَوَادُ الْغِيلَانَ الْمُتَجَمِّعَةَ حَوْلَهُ ، وَأَنْطَلَقَ جِهَةَ الْغَرْبِ .

وَأَنْتَهَزَ كَرِيمُ الدِّينِ انْشِغَالَ الْغِيلَانِ بِمُطَارَدَةِ جَوَادِهِ ، وَاتَّسَاعَ  
الدَّائِرَةِ حَوْلَهُ ، فَسَارَ بِخِفَّةٍ وَحَذَرٍ مُحَاوِلًا الْهَرَبَ ، وَلَكِنْ فِي  
اللَّحْظَةِ التَّالِيَةِ ، انْهَارَتِ الْأَرْضُ تَحْتَ أَقْدَامِ الْجَوَادِ الْأَشْهَبِ ،  
فَسَقَطَ دَاخِلَ شَرَكٍ عَلَى هَيْئَةِ حُفْرَةٍ عَمِيقَةٍ فِي بَاطِنِ الْأَرْضِ ،  
كَانَتْ تُخْفِيهَا الْأَغْصَانُ الْيَابِسَةُ وَالْأَعْشَابُ ، فَأَنْدَقَعَتِ الْغِيلَانُ إِلَى  
مَكَانِ الْحُفْرَةِ ، وَرَاحَتْ تَرْقُصُ وَتَهَلِّلُ حَوْلَهَا لِسُقُوطِ الْجَوَادِ .

رَاقِبَ كَرِيمُ الدِّينِ مَا جَرَى لِجَوَادِهِ فِي غَضَبٍ ، وَأَدْرَكَ أَنَّ  
نَجَاتَهُ صَارَتْ صَعْبَةً ، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ أَمَامَهُ مِنْ طَرِيقٍ آخَرَ غَيْرَ  
مُوَاصِلَةِ الْهَرَبِ ، قَبْلَ أَنْ يَكْتَشِفَ الْغِيلَانُ أَنَّهُ لَمْ يَسْقُطْ دَاخِلَ  
الْحُفْرَةِ مَعَ جَوَادِهِ .

وَقَفَزَ أَحَدُ الْغِيلَانِ دَاخِلَ الْحُفْرَةِ ، وَقَبِضَ عَلَى الْجَوَادِ ، وَحَمَلَهُ  
تَحْتَ إِبْطِهِ كَمَا لَوْ كَانَ يَحْمِلُ عُنْزَةً صَغِيرَةً ، ثُمَّ أَخَذَ يَبْحَثُ عَنْ  
كَرِيمِ الدِّينِ دَاخِلَ الْحُفْرَةِ فَلَمْ يَعْثُرْ عَلَيْهِ ، وَاکْتَشَفَ هَرَبَهُ ، فَصَاحَ  
فِي رِفَاقِهِ صَيْحَةً رَهِيبةً ، قَائِلًا : « لَقَدْ هَرَبَ الْإِنْسِيُّ ، وَسَقَطَ جَوَادُهُ  
وَحَدَّهُ فِي الشَّرَكِ » .

جَمَدَ كَرِيمُ الدِّينِ مَكَانَهُ حِينَ اكْتَشَفَ الْغِيلَانُ هَرَبَهُ ،  
وَشَاهَدَهُمْ يَنْتَصِبُونَ وَاقِفِينَ فِي غَضَبٍ ، وَهُمْ يُدِيرُونَ أَدَانَهُمْ فِي كُلِّ  
اتِّجَاهٍ لِتَسْمَعِ صَوْتَهُ ، وَفِي الْحَالِ أَنْدَقَعَ بَعْضُ الْغِيلَانِ إِلَى دَاخِلِ  
الْجَبَلِ ، وَعَادُوا وَهُمْ يَحْمِلُونَ شِبَاكًا كَبِيرَةً ، أَخَذُوا يُلْقُونَ بِهَا فِي  
كُلِّ اتِّجَاهٍ لِاصْطِيَادِ كَرِيمِ الدِّينِ ، الَّذِي شَعَرَ بِالْمَازِقِ الَّذِي يُوَاجِهُهُ ،  
فَأَلْقَى بِنَفْسِهِ عَلَى الْأَرْضِ مُتَدَحْرِجًا قَبْلَ أَنْ تَسْقُطَ إِحْدَى الشَّبَاكِ  
الْكَبِيرَةِ عَلَيْهِ .

وَقَبْلَ أَنْ يَقِفَ عَلَى قَدَمَيْهِ هَوَتْ شَبَكَةٌ أُخْرَى فَوْقَهُ ، فَتَدَحَّرَجَ  
مُبْتَعِدًا مَرَّةً أُخْرَى ، وَلَكِنْ صَوْتُ تَدَحْرِجِهِ جَذَبَ انْتِبَاهَ الْغِيلَانِ ،  
فَأَخَذَتْ تُلْقِي بِالشَّبَاكِ فَوْقَهُ بَعْدَ أَنْ رَصَدَتْ مَوْقِعَهُ ، فَرَاحَ كَرِيمُ  
الدِّينِ يُمَزَّقُ بِسَيْفِهِ الشَّبَاكَ الَّتِي تَكَاثَرَتْ عَلَيْهِ ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ مِنْ  
الْكثْرَةِ بِحَيْثُ حَجَبَتْ عَنْهُ ضِيَاءَ الشَّمْسِ ، وَتَشَاوَلَتْ فَوْقَهُ حَتَّى مَنَعَتْهُ  
مِنْ الْحَرَكَةِ ، فَهَمَسَ لِنَفْسِهِ فِي يَأْسٍ : « إِنَّهَا النَّهْيَةُ ! فَهَذِهِ  
الْغِيلَانُ لَنْ تَأْخُذَهَا بِي شَفَقَةً أَوْ رَحْمَةً » .

وَجَذَبَ الْغِيلَانُ الشَّبَاكَ بِفَرَسَتَيْهَا ، وَحَمَلَهَا أَحَدُهُمْ فَوْقَ ظَهْرِهِ ،  
وَحَمَلَ غَوْلٌ آخَرَ جَوَادَ كَرِيمِ الدِّينِ ، وَسَارُوا تَجَاهَ فُتْحَةِ الْكَهْفِ فِي  
سُرُورٍ ، وَهُمْ يُمْنُونَ أَنْفُسَهُمْ بِوَجْهَةِ شَهِيَةٍ .



لَمْ يَدْرُ كَرِيمُ الدِّينِ شَيْئًا مِمَّا يَدُورُ حَوْلَهُ ؛ فَقَدْ حَجَبَتِ الشَّبَاكُ  
الرُّؤْيَا أَمَامَهُ ، وَلَكِنَّهُ أَحْسَنُ بِحَرَكََةِ الْغُولِ الَّذِي يَحْمِلُهُ وَهُوَ يَرْتَقِي  
بَعْضَ الْحِجَارَةِ ، فَأَدْرَكَ أَنَّهُ يَحْمِلُهُ إِلَى دَاخِلِ الْكَهْفِ .

وَأَخِيرًا أَنْزَلَ الْغُولُ حِمْلَهُ عَلَى الْأَرْضِ ، وَأَزَاحَ الشَّبَاكَ الثَّقِيلَةَ  
عَنْ كَرِيمِ الدِّينِ الَّذِي تَطَلَّعَ حَوْلَهُ فِي قَلْقٍ ، وَشَاهَدَ أَمَامَهُ عَدَدًا مِنَ  
الْغِيلَانِ الْمُخِيفَةِ الشَّكْلِ ، دَاخِلِ الْكَهْفِ الْمُظْلِمِ . وَلَكِنْ عَيْنُهُ  
اعْتَادَتَا الظَّلَامَ بَعْدَ قَلِيلٍ ، فَشَاهَدَ هِيََاكِلَ عَظْمِيَّةً لَأَنَاسٍ وَحَيَوَانَاتٍ ،  
مُعَلَّقَةً عَلَى الْحَائِطِ ، بَعْدَ أَنْ أَوْقَعَهَا سُوءُ الْحِظِّ فِي أَيْدِي الْغِيلَانِ ،  
فَكَانَتْ نِهَائِثَهَا عَلَى أَيْدِيهِمْ .

ارْتَجَفَ كَرِيمُ الدِّينِ عِنْدَمَا شَاهَدَ تِلْكَ الْمَنَاطِرَ ، وَبَدَأَ الْيَأْسُ  
يَتَسَرَّبُ إِلَى نَفْسِهِ . وَبَعْدَ قَلِيلٍ لَمَحَ أَحَدَ الْغِيلَانِ يُقْبِلُ مِنْ دَاخِلِ  
الْكَهْفِ ، وَحِينَ سَمِعَتْ بَقِيَّةُ الْغِيلَانِ صَوْتَهُ انْحَنَتْ فِي تَوْقِيرٍ بِالْغِ ،  
فَأَدْرَكَ كَرِيمُ الدِّينِ أَنَّ هَذَا الْغُولَ هُوَ الزَّعِيمُ . وَقَدْ مَيَّزَهُ عَنْ الْبَاقِينَ  
عِقْدٌ مِنْ جَمَاجِمِ الْقُرُودِ كَانَ يَضَعُهُ حَوْلَ صَدْرِهِ ، وَمِئْزَرٌ مِنْ جِلْدِ  
الْحِمَارِ الْوَحْشِيِّ الْمُخْطَطِ كَانَ يَسْتُرِيهِ عَوْرَتُهُ .

وَأَقْتَرَبَ زَعِيمُ الْغِيلَانِ مِنْ كَرِيمِ الدِّينِ ، وَقَالَ لَهُ فِي صَوْتٍ  
مُخِيفٍ : « مَا الَّذِي أَتَى بِكَ إِلَى أَرْضِنَا ، أَيُّهَا الْإِنْسَانُ ؟ »

أَجَابَهُ كَرِيمُ الدِّينِ : « إِنِّي لَا أَضْمِرُ لَكُمْ شَرًّا ، وَلَا أَرْغَبُ فِي  
الْاعْتِدَاءِ عَلَيْكُمْ أَوْ إِذْثَائِكُمْ . وَكُلُّ مَا أَرِيدُهُ هُوَ عُبُورُ أَرْضِكُمْ  
لِلْوُصُولِ إِلَى جَبَلِ الْحِكْمَةِ ، وَأَنْتُمْ الَّذِينَ بَادَرْتُمْ بِالْهُجُومِ عَلَيَّ . »

أَطْلَقَ زَعِيمُ الْغِيلَانِ ضِحْكَةً عَالِيَةً ارْتَجَّ لَهَا الْكَهْفُ ، فَسَدَ  
كَرِيمُ الدِّينِ أَذْنِيهِ بِيَدَيْهِ مِنْ شِدَّةِ الصَّوْتِ ، وَتَوَقَّفَ زَعِيمُ الْغِيلَانِ عَنْ  
الضَّحِكِ ، وَقَالَ لِكَرِيمِ الدِّينِ :

« كَثِيرُونَ غَيْرُكَ أَرَادُوا الْوُصُولَ إِلَى جَبَلِ الْحِكْمَةِ وَلَمْ يَفْلِحُوا . »

أَجَابَهُ كَرِيمُ الدِّينِ فِي شَجَاعَةٍ : « وَلَكِنْ هَذَا لَا يَمْنَعُ مِنَ  
الْمُحَاوَلَةِ ، وَهَذَا لَا يُضِيرُكُمْ فِي شَيْءٍ . »

قَالَ زَعِيمُ الْغِيلَانِ : « وَلَكِنَّكَ بِسَبَبِ ذَلِكَ تَعَدَّيْتَ عَلَى أَرْضِنَا  
دُونَ إِذْنِ مِنَّا . »

قَالَ كَرِيمُ الدِّينِ : « إِنِّي آسَفٌ لِذَلِكَ ، وَمُسْتَعِدٌّ لَتَعْوِيضِكُمْ إِنْ  
كَانَ هُنَاكَ ضَرَرٌ . وَفِي حِوْزَتِي خَمْسُمِئَةِ دِينَارٍ مِنَ الذَّهَبِ ، هِيَ مَا  
تَبَقِيَ مَعِيَ ، وَأَنَا مُسْتَعِدٌّ لِإِعْطَائِهَا لَكُمْ ، إِذَا كَانَ فِي ذَلِكَ إِصْلَاحٌ  
لِهَذَا الْخَطَأِ . »

بَانَ الْغَضَبُ فِي عَيْنَيْ زَعِيمِ الْغِيلَانِ ، وَقَالَ : « وَبِمَاذَا سَتَفِيدُ



نَقُودُكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ ؟ لَا بُدَّ أَنَّكَ شَاهَدْتَ أَرْضَنَا وَرَأَيْتَ أَنَّهَا قَاحِلَةٌ ،  
لَا زَرْعَ فِيهَا وَلَا شَيْءَ يُمَكِّنُ أَنْ يُبَاعَ أَوْ يُشْتَرَى ؛ فَالذَّهَبُ أَوْ الْمَالُ  
لَدَيْنَا يُسَاوِي الْحِجَارَةَ وَالرَّمَالَ - لَا قِيَمَةَ لَهُ .

سَأَلَهُ كَرِيمُ الدِّينِ دَهْشًا : « وَلِمَاذَا لَا تَزْرَعُونَ أَرْضَكُمْ ،  
وَتَفْلِحُونَهَا ، وَتَبْنُونَ مَسَاكِينَ لَكُمْ ؟ »

أَجَابَهُ زَعِيمُ الْغِيلَانِ بِحِدَّةٍ : « كَيْفَ ذَلِكَ وَتَحْنُ عِمْيَانُ لَا  
تُبْصِرُ ؟ كَمَا أَنَّا نَجْهَلُ أَيَّ شَيْءٍ عَنِ الزَّرَاعَةِ أَوْ الْبِنَاءِ أَوْ الصَّنَاعَةِ . »  
أَخْفَى كَرِيمُ الدِّينِ دَهْشَتَهُ ، وَقَالَ : « وَلَكِنْ مِنْ أَيْنَ تَحْصُلُونَ  
عَلَى طَعَامِكُمْ ؟ »

أَطْلَقَ زَعِيمُ الْغِيلَانِ ضِحْكَةً عَالِيَةً ، وَقَالَ : « إِنَّ طَعَامَنَا الْوَحِيدَ  
نَحْصُلُ عَلَيْهِ مِنْ أَوْلَئِكَ الْحَقْمَى وَالْمَغْفَلِينَ ، الَّذِينَ يُرِيدُونَ عَبُورَ  
أَرْضِنَا ، لِلْوُصُولِ إِلَى جَبَلِ الْحِكْمَةِ ، فَيَكُونُ مَصِيرُهُمْ فِي بَطُونِنَا .  
لَيَتَّهَمُ كَانُوا يُدْرِكُونَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْحِكْمَةِ مُحَاوَلَةُ بُلُوغِ جَبَلِ  
الْحِكْمَةِ ! »

وَأَطْلَقَ زَعِيمُ الْغِيلَانِ ضِحْكَةً أَعْلَى ، فَتَبِعَهُ أَفْرَادُ عَشِيرَتِهِ ، وَارْتَجَّ  
الْكَهْفُ بِصَوْتِ الضَّحِكَاتِ الْمُخِيفَةِ الَّتِي زَلَزَلَتْهُ .

ارْتَعَدَ كَرِيمُ الدِّينِ لِمَا قَالَهُ زَعِيمُ الْغِيلَانِ ، وَادْرَكَ الْمَصِيرَ الَّذِي

يَنْتَظِرُهُ ، وَتَعَالَى صِرَاخُ الْغِيلَانِ فِي صَوْتِ رَهيبٍ قَائِلِينَ : « لِنَشُ  
هَذَا الْإِنْسَانَ وَجَوَادَهُ ؛ لِنَأْكُلَهُمَا وَنَتَمَتَّعَ بِمَذَاقِهِمَا ؛ فَمَنْدُ أَيَّامٍ  
عَدِيدَةٍ لَمْ نَذُقْ شَيْئًا ، وَنَكَادُ نَمُوتُ جُوعًا ! »

صَاحَ زَعِيمُ الْغِيلَانِ فِي أَتْبَاعِهِ : « أَشْعِلُوا نَارًا مُتَأَجِّجَةً لِشَيْءٍ هَذَا  
الْإِنْسَانَ وَجَوَادِهِ ؛ فَإِنِّي أَتَحَرَّقُ شَوْقًا لِنَذُوقِ لَحْمِهِمَا الشَّهِيِّ . »



يَوْمَ ، وَتَشَبَعُوا فِي كُلِّ مَرَّةٍ ، وَتَكُونَ مَوَائِدُكُمْ عَامِرَةً بِأَصْنَافٍ  
مُتَعَدِّدَةٍ مِنَ الطَّعَامِ . إِنَّ كُلَّ مَا أَرُغِبُ فِيهِ هُوَ الْحَصُولُ عَلَى مُهَلَّةٍ  
لِعَامٍ وَاحِدٍ فَقَطْ ؛ لِتَنْفِيذِ وَعْدِي هَذَا .

سَأَلَهُ زَعِيمُ الْغِيلَانِ فِي دَهْشَةٍ : « كَيْفَ ذَلِكَ ؟ »

أَجَابَهُ كَرِيمُ الدِّينِ : « سَوْفَ أَزْرِعُ أَرْضَكُمْ ، فَهِيَ خِصْبَةٌ  
وَجَاهِزَةٌ لِلزَّرَاعَةِ ، وَيَشْقُهَا نَهْرٌ صَافٍ سَيَمُدُّهَا بِالمَاءِ اللّازِمِ . وَبَعْدَ  
نَضْجِ مَحْصُولِهَا مِنَ الشَّعِيرِ وَالذَّرَّةِ وَالْفُولِ ، وَكُلِّ أَصْنَافِ البُقُولِ  
وَالْخَضِرَاوَاتِ ، سَيَفِيضُ الطَّعَامُ عَنْ حَاجَتِكُمْ ، وَتَسْتَأْكُلُونَ كُلَّ يَوْمٍ  
مِنْهُ حَتَّى تَشَبَعُوا . وَلَنْ تُضْطَرُّوا بَعْدَهَا لِانْتِظَارِ أَيِّ عَابِرِ سَبِيلٍ لِاتِّهَامِهِ  
وَسَدِّ جَوْعِكُمْ ، بَلْ يُمَكِّنُكُمْ أَيْضاً تَرْبِيَةُ الْأَبْقَارِ وَالْخِرَافِ وَالِدِّجَاجِ ،  
لِتَوْفِّرَ لَكُمْ مَا تَحْتَاجُونَهُ مِنَ اللَّحْمِ . وَسَأَصْنَعُ لَكُمْ أَيْضاً مَلَابِسَ مِنَ  
الْقُطْنِ وَالْكَتَّانِ الَّذِي سَأَزْرَعُهُ ، ثُمَّ أُنْسِجُهُ بَعْدَ ذَلِكَ . »

تَحَيَّرَ زَعِيمُ الْغِيلَانِ مِنْ ذَلِكَ الْاِقْتِرَاحِ الْعَجِيبِ ، الَّذِي لَمْ يَسْمَعْ  
مِثْلَهُ مِنْ قَبْلُ . وَلَكِنْ بَعْضُ الْغِيلَانِ صَاحَتْ : « إِنَّا جَوْعَى الْآنَ .  
نُرِيدُ أَنْ نَلْتَهُمْ هَذَا الْإِنْسَانُ وَجَوَادَهُ . »

قَالَ كَرِيمُ الدِّينِ : « إِنِّي لَنْ أَزْرِعَ أَرْضَكُمْ فَقَطْ ، بَلْ سَأَشِيدُ  
لَكُمْ أَيْضاً مَسَاكِينَ مِنْ حِجَارَةِ الْجَبَلِ الَّذِي تَعِيشُونَ فِيهِ ، وَمِنْ

## الفصل الثامن

### اتِّفَاقٌ مَعَ الْغِيلَانِ

تَأَكَّدَ كَرِيمُ الدِّينِ أَنَّ نِهَائِيَّتَهُ قَدْ حَلَّتْ ، وَأَنَّ شَيْئاً لَنْ يَنْقِذَهُ مِنْ  
مَصِيرِهِ الْمُخْتَوَمِ ، وَلَكِنْ فَجْأَةً بَرَقَ خَاطِرٌ فِي ذَهْنِهِ ، فَصَاحَ فِي زَعِيمِ  
الْغِيلَانِ : « اِنْتَظِرْ ، يَا سَيِّدِي ، وَاطْلُبْ مِنْ أَتْبَاعِكَ التَّمَهُّلَ ؛ فَإِنَّ  
لَدَيَّ عَرْضاً أَفْضَلَ لِطَّعَامِ شَعْبِكَ ، بَدَلاً مِنَ اتِّهَامِي وَجَوَادِي ؛  
لَأَنَّا لَنْ نَسُدَّ رَمَقَكُمْ وَلَوْ كُنَّا بِعَشْرَةِ أَمْثَالِ حَاجِمِنَا . »

سَأَلَهُ زَعِيمُ الْغِيلَانِ فِي دَهْشَةٍ : « أَيُّ عَرْضٍ هَذَا الَّذِي تَتَحَدَّثُ  
عَنْهُ ؟ »

أَجَابَهُ كَرِيمُ الدِّينِ : « إِنَّكُمْ بَعْدَ أَنْ تَأْكُلُونِي وَجَوَادِي سَتَجُوعُونَ  
بَعْدَهَا رَبِّمًا لِأَسَابِيعَ أَوْ شُهُورٍ طَوِيلَةٍ ، قَبْلَ أَنْ تَقْتَنِصُوا إِنْسَاناً آخَرَ أَوْ  
حَيَوَاناً يَسُوقُهُ سُوءُ الْحَظِّ إِلَى أَرْضِكُمْ ، وَهَكَذَا سَتَحْيُونَ فِي ظِلِّ  
جَوْعٍ مُسْتَمِرٍّ . وَلَكِنِّي أَضْمَنُ لَكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا ثَلَاثَ وَجَبَاتٍ كُلِّ



أَشْجَارِ الْغَابَةِ الْقَرِيبَةِ ، وَسَأَصْنَعُ لَكُمْ أَوَانِي لِلطَّهْيِ ، وَأَكْوَابًا  
وَمَقَاعِدَ وَمَنَازِدَ وَكُلَّ مَا تَتَمَنَوْنَ . وَسَأَعْلَمُكُمْ كَيْفَ تَصْنَعُونَ تِلْكَ  
الْأَشْيَاءَ ، فَيُصَيِّبُكُمْ التَّمَدُّنُ ، وَتَتَحَسَّنُ مَعِيشَتُكُمْ ، وَلَا تُضْطَرُّوْنَ  
لِسُكْنَى الْكُهُوفِ وَالْغَابَاتِ ، وَالنُّومِ عَلَى الْأَرْضِ وَالصُّخُورِ ، وَالسَّيْرِ  
عَرَايَا فِي الْبَرْدِ .

سَادَ الصُّمْتُ بَعْدَ كَلِمَاتِ كَرِيمِ الدِّينِ ، وَأَخَذَتِ الْغِيلَانُ تَهْزُ  
رُءُوسَهَا فِي دَهْشَةٍ ، وَقَدْ أَعْجَبَتْهَا كَلِمَاتُ كَرِيمِ الدِّينِ .

قَالَ زَعِيمُ الْغِيلَانِ فِي صَوْتٍ لَاهِتٍ : « هَلْ تَقُولُ الصَّدُقُ أَيُّهَا  
الْإِنْسَانُ أَمْ تُحَاوِلُ خِدَاعَنَا ؟ وَهَلْ أَنْتَ قَادِرٌ حَقًّا عَلَى فِعْلِ تِلْكَ  
الْأَشْيَاءِ ؟ »

أَجَابَهُ كَرِيمُ الدِّينِ : « إِنِّي لَا أَخْدَعُكُمْ ؛ فَسَوْفَ أَقُومُ بِكُلِّ  
هَذِهِ الْأَشْيَاءِ ، وَسَأَعْلَمُهَا لَكُمْ لِكَيْ تَتِمَّكِنُوا مِنْ صُنْعِهَا فَلَا تُضْطَرُّوْا  
لِلتِّهَامِ إِنْسَانٍ يَعْبُرُ أَرْضَكُمْ دُونَ ذَنْبٍ . وَلَيْسَ لِي غَيْرُ شَرْطٍ وَحِيدٍ ،  
وَهُوَ أَنْ تَدْعُونِي أَعْبُرَ أَرْضَكُمْ فِي سَلَامٍ بَعْدَ أَنْ أَنْتَهِيَ مِنْ هَذِهِ  
الْمُهْمَةِ . أَمَّا إِذَا فَشِلْتُ فِيهَا فَيَحِقُّ لَكُمْ التِّهَامِي وَجَوَادِي . »

تَصَاعَدَ صِيَاخُ الْغِيلَانِ بِالْمُوَافَقَةِ ، وَقَالَ أَحَدُهَا : « كَانَ أَجْدَادُنَا  
يَصْنَعُونَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ ، وَلَكِنْ بَعْدَ أَنْ أَصَابَهُمُ الْعَمَى تَوَقَّفُوا عَنْ

الزَّرَاعَةِ وَالصَّنَاعَةِ ، وَصَارَ عَمَلُهُمُ الْوَحِيدُ اقْتِنَاصَ مَا يَمُرُّ بِأَرْضِهِمْ .  
وَلَعَلَّ هَذَا الشَّابُّ يُعِيدُ لَنَا مَا ضَاعَ مِنَّا فَلَا نَعُودَ إِلَى اقْتِنَاصِ  
الْإِنْسَانِ ثَانِيَةً . »

قَالَ غَوْلٌ آخَرُ : « وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ يَهْرَبَ هَذَا الْإِنْسَانُ فِي عَفْلَةٍ  
مِنَّا ، إِذَا مَنَحْنَاهُ الْأَمَانَ ، وَلَا يُحَقِّقُ لَنَا مَا وَعَدَنَا بِهِ . وَرُبَّمَا يَكُونُ  
كُلُّ مَا قَالَهُ مُجَرَّدَ خُدْعَةٍ ، تَحِينًا لِفُرْصَةِ هُرُوبِهِ مِنْ أَيْدِينَا . »

قَالَ كَرِيمُ الدِّينِ : « لَنْ تُصَدِّقُونِي إِذَا وَعَدْتُكُمْ بِأَنِّي لَنْ أَهْرَبَ ،  
وَأَنَا مُسْتَعِدٌّ لَأَنْ أَقِيدَ مِنْ رَقَبَتِي بِطُوقِ حَدِيدِي لَهُ مِفْتَاحٌ وَحِيدٌ  
يَسْتَحِيلُ تَحْطِيمُهُ ، وَيَحْتَفِظُ زَعِيمُكُمْ بِهِ ، يَتَدَلَّى مِنْهُ جَرَسٌ كُلَّمَا  
تَحَرَّكَتُ صَلَّصَل . وَمَا دُمْتُ تَسْمَعُونَ صَلَّصَلَةَ هَذَا الْجَرَسِ  
سَتَأْتِكُمُ مِنْ وَجُودِي وَعَمَلِي بِجَوَارِكُمْ ، وَمِنْ أَنَّنِي لَمْ أَهْرَبَ .  
وَفِي اللَّيْلِ احْبِسُونِي دَاخِلَ هَذَا الْكَهْفِ لِتَضْمَنُوا عَدَمَ هَرَبِي أَثْنَاءَ  
نَوْمِكُمْ . وَبَعْدَ تَحْقِيقِ مَا وَعَدْتُكُمْ بِهِ ، يُمَكِّنُ لِزَعِيمِكُمْ فَتَحَ قُفْلِ  
الطُّوقِ ، وَتَخْلِصُنِي مِنْهُ . »

قَالَ زَعِيمُ الْغِيلَانِ فِي سُورٍ : « هَذِهِ فِكْرَةٌ جَيِّدَةٌ ، وَسَنَبْدَأُ بِتَنْفِيزِهَا  
فِي الْحَالِ . لِحُسْنِ الْحِظِّ أَنَّنِي أُمْتَلِكُ مِثْلَ هَذَا الطُّوقِ وَالْجَرَسِ  
أَيْضًا ، فَقَدْ كَانَ أَجْدَادُنَا يَسْتَعْمِلُونَهُ مَعَ مَا شِئْتَهُمْ لِیَضْمَنُوا عَدَمَ



وَعَابَ زَعِيمُ الْغِيلَانِ فِي الدَّاخِلِ ، وَعَادَ بَعْدَ قَلِيلٍ حَامِلًا الطُّوقَ  
ذَا الْجَرَسِ ، فَعَلَّقَهُ فِي رَقَبَةِ كَرِيمِ الدِّينِ ، وَأَعْلَقَ قَفْلَهُ ، وَاحْتَفَظَ  
بِمِفْتَاحِهِ ، فَصَارَ الْجَرَسُ يُصَلِّصُ مَعَ آيَةِ حَرَكَةٍ مِنْ كَرِيمِ الدِّينِ ،  
وَأَسْتَحَالَ عَلَيْهِ الْهَرَبُ .

قَالَ كَرِيمُ الدِّينِ لِزَعِيمِ الْغِيلَانِ : « إِنِّي أَطْلُبُ مَهْلَةً يَوْمَيْنِ فَقَطْ  
لِكِي أَبَدًا فِيمَا وَعَدْتُ بِهِ ، بِشَرْطِ أَنْ تَمْنَحُونِي الْكُتُبَ الْمَعْلُوقَةَ فِي  
صَنْدُوقٍ فَوْقَ سَرَجِ جَوَادِي .»

أَحْضَرَتْ لَهُ الْغِيلَانُ الْكُتُبَ ، وَحَبَسَتْهُ يَوْمَيْنِ دَاخِلَ الْكَهْفِ ، لَا  
يَقْتَاتُ خِلَالَهُمَا غَيْرَ أَوْرَاقِ الْأَشْجَارِ الَّتِي وَجَدَهَا فِي أَرْضِيَّتِهِ .  
وَحِلَالِ الْيَوْمَيْنِ أَتَمَّ كَرِيمُ الدِّينِ قِرَاءَةَ كُلِّ الْكُتُبِ الَّتِي أَهْدَاهَا لَهُ  
الْحَاكِمُ عَنِ الزَّرَاعَةِ وَطَرَفُهَا ، وَبَعْدَ أَنْ اسْتَوْعَبَهَا جِدًّا أَغْلَقَهَا  
وَهَمَسَ لِنَفْسِهِ : « لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ أَنَّ هَذِهِ الْكُتُبَ سَتَحْمِلُ لِي  
فُرْصَةَ النِّجَاةِ مِنَ الْمَوْتِ ، فَشُكْرًا لَكَ يَا أَبِي لِأَنَّكَ مَنَحْتَهَا لِصَدِيقِكَ  
الْحَاكِمِ ، وَشُكْرًا لَهُ لِأَنَّهُ أَصَرَ عَلَيَّ أَنْ أَحْمِلَهَا مَعِي . وَلَكِنْ يَجِبُ  
أَوَّلًا الْحُمُولُ عَلَى بُدُورِ الْأَصْنَافِ الَّتِي أَنْوِي زَرَاعَتَهَا .»

وَعَرَّضَ كَرِيمُ الدِّينِ الْأَمْرَ عَلَى زَعِيمِ الْغِيلَانِ ، فَفَكَّرَ الزَّعِيمُ ثُمَّ





قال : « وَلَكِنْ مِنْ أَيْنَ سَنَحْصِلُ عَلَى تِلْكَ الْبُدُورِ ، وَنَحْنُ لَا نَمْلِكُ مِنْهَا شَيْئًا مُنْذُ زَمَنٍ طَوِيلٍ ؟ »

أجابهُ كَرِيمُ الدِّينِ : « إِنِّي أَسْتَطِيعُ شِرَاءَ كَمِيَّةٍ كَبِيرَةٍ مِنْ تِلْكَ الْبُدُورِ بِجُزْءٍ مِنَ الْمَالِ الَّذِي أَمْلِكُهُ ، وَزَرَعْتُهَا ، وَسَاجَلْبُ مَعَهَا أَيْضًا بَعْضَ الْأَبْقَارِ وَالْخِرَافِ وَالْدَّجَاجِ لِتَرْبِيَّتِهَا ، فَتَكَاثُرُ وَتَنْعَمُونَ بِلَحْمِهَا وَلَبَنِهَا . وَلَكِنْ هَذَا يَتَطَلَّبُ السَّفَرَ إِلَى أَقْرَبِ مَدِينَةٍ ؛ لِابْتِيَاعِ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ مِنْهَا . وَإِذَا كُنْتُمْ تَخْشَوْنَ فِرَارِي فَيُمْكِنُ أَنْ يَصْطَلِحَنِي أَحَدُ الْغِيلَانِ فِي رِحْلَتِي . »

وَأَفَقَ زَعِيمُ الْغِيلَانِ ، وَسَافَرَ كَرِيمُ الدِّينِ بِرُفْقَةِ حَارِسٍ ، وَعَادَا بَعْدَ أَسْبُوعٍ ، وَهُمَا يَحْمِلَانِ فَوْقَ عَرَبَةٍ تَجْرُهَا الثِّيرَانُ وَالْأَبْقَارُ ، كُلُّ أَصْنَافِ الْبُدُورِ الصَّالِحَةِ لِلزَّرَاعَةِ ، وَبَعْضُ أَقْفَاصِ الدَّجَاجِ .

وَفِي الْحَالِ بَدَأَ كَرِيمُ الدِّينِ عَمَلَهُ الشَّاقَّ ؛ فَفَقَسَمَ الْغِيلَانِ إِلَى مَجْمُوعَاتٍ ، أَخَذَتْ مَجْمُوعَةٌ تَحْرُثُ الْأَرْضَ ، وَمَجْمُوعَةٌ ثَانِيَةٌ تُلْقِي الْبُدُورَ فِي الْأَرْضِ الْمَحْرُوثَةِ ، وَمَجْمُوعَةٌ ثَالِثَةٌ تَقُومُ بِرَبِّهَا ، تَحْتَ إشرافِ كَرِيمِ الدِّينِ .

وَأَمَرَ كَرِيمُ الدِّينِ بَعْضَ الْغِيلَانِ بِتَقْطِيعِ بَعْضِ أَشْجَارِ الْغَابَةِ ، فَمَكَّنَتْهَا قُوَّتُهَا الْهَائِلَةُ مِنْ ذَلِكَ ، وَشَرَعَتْ فِي بِنَاءِ مَسَاكِنَ لَهَا تَحْتَ رِعَايَةِ

كَرِيمِ الدِّينِ وَإِشْرَافِهِ ، وَهُوَ يَسْتَمِدُّ مَعْرِفَتَهُ مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي يَحْمِلُهَا مَعَهُ . وَعِنْدَمَا تَمَّ بِنَاءُ عَشَرَاتِ الْمَسَاكِنِ ، كَانَتْ الْأَرْضُ الْمَزْرُوعَةُ قَدْ أَنْبَتَتْ سَيْقَانًا خَضِرَاءَ ، فَعَاوَدَتِ الْغِيلَانُ رَبِّهَا تَحْتَ إشرافِ كَرِيمِ الدِّينِ ، الَّذِي أَخَذَ يُوَجِّهُ بِقِيَّتِهَا لَطَرِقَ صِنَاعَةِ الْفَخَّارِ وَالزُّجَاجِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَكَانَتْ الْغِيلَانُ تَحْصِلُ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ مِنَ التُّرْبَةِ الْغَنِيَّةِ فِي أَرْضِهَا الْحَافِلَةِ بِكُلِّ الْمَعَادِنِ ، تُسَاعِدُهَا النَّارُ الَّتِي أَشْعَلَهَا كَرِيمُ الدِّينِ لِتُسَاهِمَ فِي صِنَاعَةِ الزُّجَاجِ وَصَهْرِ الْمَعَادِنِ .

وَعِنْدَمَا أَتَمَّ كَرِيمُ الدِّينِ صِنْعَ أَثَاثِ الْمَنَازِلِ ، كَانَتْ الْأَرْضُ الْمَزْرُوعَةُ قَدْ أَيْنَعَتْ مُحَاصِيلُهَا ، وَحَانَ أَوَانُ قِطَافِهَا ، فَتَكَدَّسَتْ الْمُحَاصِيلُ دَاخِلَ الْمَخَازِنِ الْوَاسِعَةِ ، فَابْتَهَجَتِ الْغِيلَانُ ، وَأَخَذَتْ تَأْكُلُ حَتَّى الشَّبَعِ - لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي حَيَاتِهَا - مِنَ الْخَضِرَاوَاتِ وَالْبُقُولِ وَالْأَبْقَارِ الْمَذْبُوحَةِ . وَنَامَتْ لَيْلَتُهَا الْأُولَى دَاخِلَ الْمَسَاكِنِ الْفَاحِشَةِ الْوُثِيرَةِ ، وَهِيَ تَرْتَدِي أَبْهَى الْحُلْلِ وَالْمَلَابِسِ ، الَّتِي حَصَلَ كَرِيمُ الدِّينِ عَلَى كِتَانِهَا وَقُطْنِهَا مِنَ الْمُحَاصِيلِ الَّتِي زَرَعَهَا وَحَصَدَهَا ، وَاسْتَعْرِقَ نَسْجُهَا عِدَّةَ شُهُورٍ بَعْدَ أَنْ عَلَّمَ الْغِيلَانُ كَيْفَ تَفْعَلُ ذَلِكَ عَلَى الْأَنْوَالِ .

وَذَاتَ يَوْمٍ قَالَ زَعِيمُ الْغِيلَانِ لِكَرِيمِ الدِّينِ : « إِنِّي لَا أَذْري كَيْفَ أَشْكُرُكَ أَيُّهَا الشَّابُّ ؛ فَقَدْ عَلَّمْتَنَا أَشْيَاءَ كَثِيرَةً نَافِعَةً ، وَكُنْتَ



خَيْرَ عَوْنٍ لَنَا . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَنَّنَا طَاوَعْنَاكَ وَأَبْقَيْنَا عَلَى حَيَاتِكَ . وَأَعِدُّكَ  
بَعْدَ الْآنَ بِأَنَّ أَيَّ إِنْسَانٍ يَعْبُرُ أَرْضَنَا لَنْ يُصِيبَهُ الضَّرَرُّ أَبَدًا ، بِفَضْلِكَ  
أَيُّهَا الشَّابُّ الْكَرِيمُ .

وَوَضَعَ زَعِيمُ الْغِيلَانِ مِفْتَاحَهُ فِي قَفْلِ الطُّوقِ ، فَتَحَرَّرَ مِنْهُ كَرِيمُ  
الدِّينِ ، وَقَالَ لَهُ زَعِيمُ الْغِيلَانِ : « أَنْتَ حُرٌّ الْآنَ ، وَتَسْتَطِيعُ أَنْ  
تَذْهَبَ حَيْثُ شِئْتَ . »

شَكَرَ كَرِيمُ الدِّينِ زَعِيمَ الْغِيلَانِ ، وَقَالَ لَهُ : « إِنِّي بِدَوْرِي أَقْدَمُ  
لَكُمْ سُكْرِي أَيُّهَا الزَّعِيمُ ، فَفِي أَحْيَانٍ كَثِيرَةٍ يَدْفَعُ الْخَطَرُ الْإِنْسَانَ  
إِلَى تَعَلُّمِ أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ . وَلَوْلَاكُمْ مَا اهْتَمَمْتُ بِالزَّرَاعَةِ أَوْ طَرُقِ  
الصَّنَاعَةِ ، وَلَمَّا مَارَسْتُهَا فِي حَيَاتِي . »

وَتَجَمَّعَتِ الْغِيلَانُ كُلُّهَا فِي وَدَاعٍ حَارٍّ لِكَرِيمِ الدِّينِ ، فَأَمْتَطَلَى  
جَوَادَهُ ثُمَّ انْطَلَقَ مُوَاصِلًا رِحْلَتَهُ إِلَى جَبَلِ الْحِكْمَةِ ، وَهُوَ يَحْمَدُ اللَّهَ  
عَلَى كُلِّ مَا جَرَى لَهُ . وَاسْتَعَدَّ لاجْتِيَازِ الْعَقَبَةِ الْأَخِيرَةِ لَهُ ، وَهِيَ  
عُبُورُ بِلَادِ الْأَقْرَامِ .

## الفصل التاسع

### أَرْضُ الضَّبَابِ وَالْأَقْرَامِ

اسْتَغْرَقَتْ رِحْلَةُ كَرِيمِ الدِّينِ إِلَى بِلَادِ الْأَقْرَامِ شَهْرَيْنِ كَامِلَيْنِ ،  
قَطَعَ خِلَالَهُمَا أَرْضَيْ لَمْ يَسْمَعْ عَنْهَا مِنْ قَبْلُ ، وَصَادَفَ شُعُوبًا لَمْ  
يَكُنْ يَدْرِي بِوُجُودِهَا ، وَتَعَلَّمَ وَاکْتَسَبَ حِكْمَاتٍ جَدِيدَةً كُلَّ يَوْمٍ .  
وَأَخِيرًا لَاحَتْ لَهُ أَرْضُ الْأَقْرَامِ مِنْ بَعِيدٍ .

وَكَانَتْ ثَمَّةَ ظَاهِرَةٍ عَجِيبَةٍ تُحِيطُ بِتِلْكَ الْأَرْضِ ، فَالضَّبَابُ  
الْكثِيفُ يَغْطِي كُلَّ شَيْءٍ فَوْقَهَا ، حَتَّى لَا تَكَادُ تَبِينُ تَفَاصِيلُهَا ، وَلَا  
يَكَادُ الْمَرْءُ يَسْتَطِيعُ رُؤْيَا مَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ مِنْ كَثَافَةِ الضَّبَابِ .

تَوَقَّفَ كَرِيمُ الدِّينِ بِجَوَادِهِ دَهْشًا ، وَقَالَ لِنَفْسِهِ : « كَيْفَ  
سَأَتَمَكَّنُ مِنْ عُبُورِ هَذِهِ الْأَرْضِ ، وَهِيَ مُحَاطَةٌ بِهَذَا الضَّبَابِ ؟  
وَكَيْفَ سَأَهْتَدِي إِلَى طَرِيقِي وَسَطِهَا ، وَالسَّمَاءُ تَحْجُبُهَا هَذِهِ الْغُيُومُ ؟  
وَلَكِنْ لَيْسَ هُنَاكَ مَفَرٌّ مِنْ اقْتِحَامِهَا مَهْمَا كَانَتْ الْمَخَاطِرُ . »



وَلَكَزَ جَوَادَهُ بِقُوَّةٍ ، فَانْطَلَقَ كَأَنَّهُ سَهْمٌ نَحْوَ الضَّبَابِ وَاخْتَرَقَهُ ،  
وَأَخَذَ يَعْدُو بِصَاحِبِهِ فِي قَلْبِ الضَّبَابِ ، وَهُوَ لَا يَكَادُ يَرَى مَوْضِعَ  
قَدَمَيْهِ ، ثُمَّ تَعَثَّرَ فِي حَجَرٍ كَبِيرٍ اصْطَدَمَ بِقَوَائِمِهِ ، فَسَقَطَ هُوَ وَرَاكِبُهُ  
سَقَطَةً مُؤَلِمَةً . وَتَحَامَلَ كَرِيمُ الدِّينِ وَنَهَضَ ، وَحَاوَلَ اخْتِرَاقَ حُجْبِ  
الضَّبَابِ دُونَ فَائِدَةٍ . وَفَجَأَةً شَاهَدَ عَلَى الْبُعْدِ ضَوْعًا وَاهِنًا ، فَاقْتَرَبَ  
مِنْ مَصْدَرِهِ حَتَّى لَمْ يَعُدْ يَفْصِلُهُ عَنْهُ غَيْرُ خُطْوَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَشَاهَدَ  
قَرْمًا ، لَا يَزِيدُ طَوْلُهُ عَلَى قَامَةِ طِفْلٍ ، مُمْسِكًا بِمِصْبَاحِ زَيْتِيٍّ ، يُنْقَبُ  
هُنَا وَهُنَاكَ وَسَطَ الضَّبَابِ ، كَأَنَّهُ يَبْحَثُ عَنْ شَيْءٍ مُعَيَّنٍ .

انْدَفَعَ كَرِيمُ الدِّينِ نَحْوَ الْقَرَمِ ، وَصَاحَ بِهِ : « أَنْتَ أَيُّهَا الْقَرَمُ ،  
هَلْ يُمَكِّنُكَ أَنْ تَدُلَّنِي عَلَى وَسِيلَةٍ لِلْخُرُوجِ مِنْ هَذِهِ الْمَتَاهَةِ الَّتِي  
يَغْلُفُهَا الضَّبَابُ ؟ »

أَجَابَهُ الْقَرَمُ : « إِنِّي مَشْغُولٌ ، وَلَا أَسْتَطِيعُ مُسَاعَدَتَكَ ؛ فَتَمَّ  
عَمَلٌ آخَرٌ أَوْدِيهِ ؛ إِنِّي أَفْتَشُ عَنْ الْحِكْمَةِ بِهَذَا الْمِصْبَاحِ الزَّيْتِيِّ .  
إِنَّهَا هُنَاكَ ، وَمَنْ يَدَقِّقْ يَعَثِّرُ عَلَيْهَا . »

هَمَسَ كَرِيمُ الدِّينِ لِنَفْسِهِ : « إِنَّ هَذَا الْقَرَمَ يَبْدُو لِي مَجْنُونًا !  
هَلْ يُمَكِّنُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَعَثِّرَ عَلَى الْحِكْمَةِ ، إِذَا فَتَشَ عَنْهَا  
بِمِصْبَاحٍ ؟ »

الْتَفَتَ إِلَى الْقَرَمِ قَائِلًا : « إِنَّكَ تَبْدُلُ مَجْهُودًا ضَائِعًا وَلَنْ تَعَثِّرَ

عَلَى مَا تَبْحَثُ عَنْهُ أَبَدًا . وَالْأَفْضَلُ لَكَ أَنْ تَبِيعَنِي هَذَا الْمِصْبَاحَ ؛  
لِيُرْسِدَنِي إِلَى طَرِيقِ الْخُرُوجِ مِنْ هَذَا الضَّبَابِ . وَقَدْ تَبَقَّتْ مَعِيَ مِئَةُ  
دِينَارٍ ذَهَبِيٍّ ، فَمَا رَأَيْكَ لَوْ مَنَحْتُكَ نِصْفَهَا ، مُقَابِلَ هَذَا الْمِصْبَاحِ  
الَّذِي لَا يُسَاوِي دِينَارًا وَاحِدًا مِنَ الْفِضَّةِ ؟ »

أَجَابَهُ الْقَرَمُ : « إِنِّي لَا أَبِيعُ مِصْبَاحِي بِكُلِّ مَالِ الْعَالَمِ ! »

هَمَسَ كَرِيمُ الدِّينِ لِنَفْسِهِ : « إِنَّ هَذَا الْقَرَمَ يَبْدُو طِمَاعًا مُحْتَالًا ،  
وَلَكِنْ لَيْسَ أَمَامِي غَيْرُ مُضَاعَفَةِ الثَّمَنِ لَهُ . »

وَقَالَ لِلْقَرَمِ : « مَا رَأَيْكَ لَوْ مَنَحْتُكَ كُلَّ مَا أَمْلِكُ مِنْ ذَهَبٍ ثَمَنًا  
لهَذَا الْمِصْبَاحِ ؟ »

كَرَّرَ الْقَرَمُ إِجَابَتَهُ فِي إِصْرَارٍ : « وَلَا بِكُلِّ مَالِ الْعَالَمِ أَبِيعُ هَذَا  
الْمِصْبَاحَ ! »

غَضِبَ كَرِيمُ الدِّينِ ، وَصَاحَ فِي الْقَرَمِ : « حَسَنَ أَيُّهَا الْقَرَمُ  
الْخَرَفُ ، فَسَوْفَ أَحْصُلُ مَجَانًّا عَلَى مَا رَفَضْتَ أَنْ تَبِيعَنِي إِيَّاهُ بِمِئَةِ  
دِينَارٍ ذَهَبِيٍّ ، وَلَنْ تَسْتَطِيعَ مَنَعِي أَبَدًا . »

وَأَنْقَضَ كَرِيمُ الدِّينِ عَلَى الْقَرَمِ ، فَانْتَزَعَ مِنْهُ مِصْبَاحَهُ الزَّيْتِيَّ ،  
وَقَفَرَ إِلَى جَوَادِهِ وَلَكَزَهُ بِقُوَّةٍ ، فَانْطَلَقَ الْجَوَادُ يَخْتَرِقُ حُجْبَ الضَّبَابِ



الكثيف ، وَمِنْ الْخَلْفِ عَلَا صِيَا حُ الْقَزَمِ صَاحِبِ الْمَصْبَاحِ : « عُدَّ  
أَيُّهَا الشَّابُّ وَلَا تَدِمْتَ أَشَدَّ النَّدَمِ ! »

أَجَابَهُ كَرِيمُ الدِّينِ سَاخِرًا : « لَنْ يَنْدَمَ أَحَدٌ سِوَاكَ أَيُّهَا الْقَزَمُ  
الْأَحْمَقُ ؛ بِسَبِّ الدَّنَائِرِ الذَّهَبِيَّةِ الَّتِي خَسِرْتَهَا . »

وَانْطَلَقَ بِجَوَادِهِ كَاشِفًا الطَّرِيقَ لِنَفْسِهِ بِمِصْبَاحِهِ الزَّيْتِيِّ ، وَلَكِنْ  
الْمِصْبَاحُ لَمْ يَكُنْ يَبِينُ مَعَالِمَ الطَّرِيقِ لِأَكْثَرِ مَنْ مَرَمَى حَجَرًا . وَأَخَذَ  
الضَّبَابُ يَتَكَاثَفُ شَيْئًا فَشَيْئًا فَتَضَاعَلَتِ الْمَسَافَةُ الَّتِي يُبِيرُهَا ، وَكَرِيمُ  
الدِّينِ يَدُورُ بِجَوَادِهِ فِي حَلَقَاتٍ لَا نِهَآيَةَ لَهَا ، دُونَ أَنْ يَعْثُرَ عَلَى  
طَرِيقِ النِّجَآةِ . وَتَوَقَّفَ الْجَوَادُ فِي النِّهَآيَةِ لَاهِثًا ، وَكَانَ التَّعَبُ  
وَالْإِنْهَآكُ قَدْ حَلَا بِكَرِيمِ الدِّينِ ، فَقَالَ لِنَفْسِهِ فِي غَضَبٍ : « مَا  
الْعَمَلُ الْآنَ وَلَا سَبِيلَ لِي لِمُغَادَرَةِ هَذِهِ الْمَتَآهَةِ الضَّبَّائِيَّةِ ؟ »

وَلَا حِظَّ أَنْ نُورَ الْمِصْبَاحِ قَدْ أَخَذَ يَخْبُو شَيْئًا فَشَيْئًا ، فَصَاحَ  
سَاخِطًا : « لَمْ يَكُنْ يَنْقُصُنِي غَيْرُ ذَلِكَ ! لَقَدْ قَرَعْتُ زَيْتُ الْمِصْبَاحِ ،  
وَلَمْ تَعُدْ لَهُ آيَةٌ فَائِدَةٍ . »

وَانْطَفَأَ الْمِصْبَاحُ وَسَادَ الظُّلَامُ ، فَالْقَاهُ كَرِيمُ الدِّينِ عَلَى الْأَرْضِ

وَحَطْمُهُ بِقَدَمِهِ ، ثُمَّ طَوَّحَ بِهِ بَعِيدًا فِي غَضَبٍ ، وَوَاصَلَ السَّيْرَ  
مُتَرْجِلًا وَهُوَ يَجُرُّ جَوَادَهُ خَلْفَهُ ، وَقَدْ أَطْبَقَ الْيَأْسُ عَلَيْهِ .

وَمَرَّتْ سَاعَاتٌ قَبْلَ أَنْ يَوْقِنَ مِنْ فَشْلِهِ التَّامِّ فِي مُهِمَّتِهِ ، وَأَحْسَ  
بِتَعَبٍ لَا مِثِيلَ لَهُ حَتَّى لَمْ تَعُدْ قَدَمَاهُ قَادِرَتَيْنِ عَلَى حَمْلِهِ . وَكَادَ  
الْجَوْعُ الشَّدِيدُ يَفْتِكُ بِهِ ، وَأَصَابَهُ الْعَطَشُ بِالْجَفَافِ ، فَأَنْهَارَ عَلَى  
الْأَرْضِ خَائِرَ الْقَوَى هَانِفًا : « لِيُنْقِذْنِي أَحَدُكُمْ ! إِنِّي أَمُوتُ جَوْعًا  
وَعَطَشًا ! »

وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ مُجِيبًا ، فَزَحَفَ مُحَاوِلًا الْبَحْثَ عَنْ طَعَامٍ أَوْ  
شَرَابٍ ، وَلَكِنْ قُوَّتُهُ خَارَتْ أَكْثَرَ ، وَلَمْ يَعُدْ بِاسْتَطَاعَتِهِ رَفْعَ ذِرَاعِهِ ،  
فَأَنْهَارَ فَاقِدًا الْوَعْيَ ، وَلَمْ يَعُدْ يَشْعُرُ بِشَيْءٍ حَوْلَهُ .

وَبَعْدَ قَلِيلٍ اقْتَرَبَتْ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْأَقْزَامِ الْغَاضِبِينَ ، وَفِي صَمْتٍ  
حَمَلُوا كَرِيمَ الدِّينِ فَوْقَ عَرَبَةٍ تَجُرُّهَا الْخُيُولُ ، وَتَوَقَّفُوا أَمَامَ أَبْوَابِ  
قَصْرِ عَظِيمٍ يُغْلِقُهُ الضَّبَابُ ، وَانْفَتَحَتْ أَبْوَابُ الْقَصْرِ لَهُمْ ، فَدَلَفَ  
الْأَقْزَامُ رَاكِبُو الْعَرَبَةِ بِكَرِيمِ الدِّينِ ، وَهُمْ يَحْمِلُونَهُ فَوْقَ أَكْتَافِهِمْ إِلَى  
الدَّخْلِ ، عَلَى حِينِ قَادَ الْبَاقُونَ الْجَوَادَ إِلَى حَظِيرَةٍ خَاصَّةٍ ، وَقَدَّمُوا  
لَهُ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ .



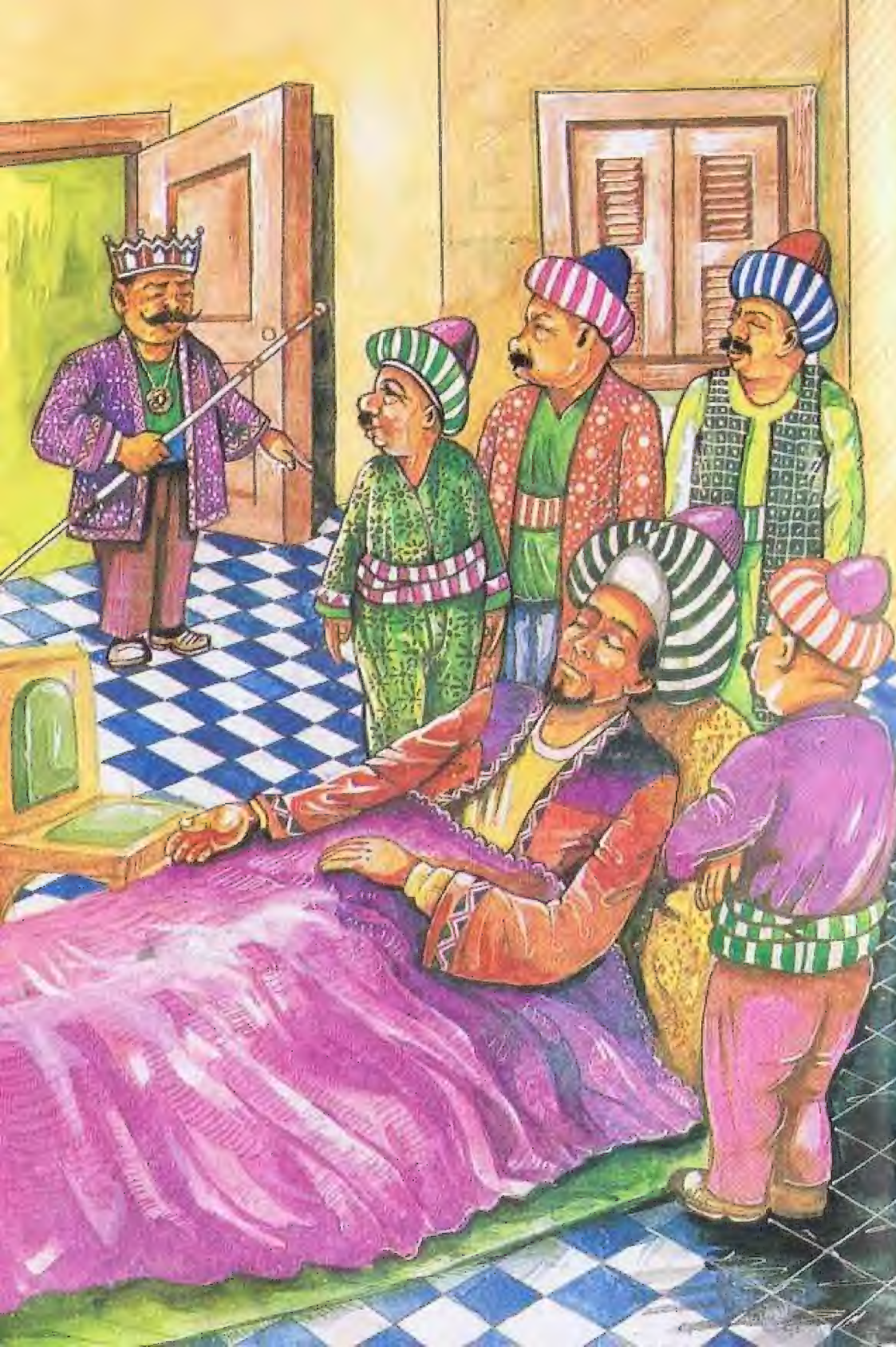
وَأَتَتْهُ الْأَقْزَامُ إِلَى قَاعَةٍ وَاسِعَةٍ فَمَدَّوْا كَرِيمَ الدِّينِ فَوْقَ فِرَاشٍ  
وَثِيرٍ فِي صَدْرِ الْقَاعَةِ . وَتَقَدَّمَ مِنْ أَحَدِ الْأَرْكَانِ قَزَمٌ عَجُوزٌ لَهُ لِحْيَةٌ  
بَيَضاء طَوِيلَةً تَصِلُ لِرُكْبَتَيْهِ ، وَقَدْ زَيْنَ رَأْسَهُ بِتَاجٍ مِنَ الذَّهَبِ وَالْمَاسِ ،  
وَأَخَذَ يَرْفُلُ فِي مَلَابِسٍ حَرِيرِيَّةٍ مُوشَاةٍ بِالذَّهَبِ ، وَقَدْ بَدَأَ وَاضِحًا أَنَّهُ  
مَلِكُ الْأَقْزَامِ .

وَتَطَلَّعَ الْمَلِكُ إِلَى كَرِيمِ الدِّينِ غَاضِبًا وَقَالَ بَعْدَ لَحْظَةٍ : « دَعُوا  
الْأَطِبَاءَ يَعْتَنُوا بِهَذَا الشَّابِّ ، وَيَرْطُبُوا شَفَتَيْهِ بِالْمَاءِ وَعَصِيرِ الْفَاكِهَةِ ؛  
لِكَيْ يَبْقَى حَيًّا . وَلَكِنَّهُ بَعْدَ أَنْ يُفَيَّقَ سَوْفَ يَلْقَى عِقَابًا قَاسِيًا عَلَى  
فَعْلَتِهِ الشَّنِيعَةِ ، وَاسْتِيْلَائِهِ عَلَى مِصْبَاحِ الْحِكْمَةِ ، وَتَحْطِيمِهِ بِمِثْلِ  
تِلْكَ الصُّورَةِ . »

فَنَفَّذَ أَتْبَاعُهُ مَا قَالَهُ .

عِنْدَمَا أَفَاقَ كَرِيمُ الدِّينِ وَجَدَ نَفْسَهُ رَاقِدًا فِي زَنْزَانَةٍ حَدِيدِيَّةٍ ،  
دَاخِلَ قَاعَةٍ كَبِيرَةٍ مُكْتَظَّةٍ بِالْأَقْزَامِ .

كَانَتْ الْقَاعَةُ أَشْبَهَ بِقَاعَاتِ الْمَحَاكِمَةِ ، وَقَدْ جَلَسَ ثَلَاثَةُ قُضَاةٍ  
إِلَى الْمِنْصَةِ ، وَجَلَسَ قَزَمٌ مَكَانَ مُمَثِّلِ الْإِتْهَامِ ، وَآخَرُ مَكَانَ مُمَثِّلِ  
الدِّفَاعِ ، عَلَى حِينِ جَلَسَ عَشْرَاتُ الْأَقْزَامِ فِي مَقَاعِدِ الْحَاضِرِينَ ،  
وَمِنْهُمْ الْقَزَمُ الَّذِي اسْتَوْلَى كَرِيمَ الدِّينَ عَلَى مِصْبَاحِهِ الزَّيْتِيِّ .





أَمَّا الْمَلِكُ فَجَلَسَ فِي مَكَانٍ خَاصٍّ عَلَى يَمِينِ مَنْصَةِ الْقَضَاةِ ،  
فَوْقَ مَقْعَدٍ عَالٍ مُرْصِعٍ بِالْيَاقُوتِ وَالْمَاسِ .

دَهَشَ كَرِيمُ الدِّينِ لِحُظَّةٍ وَلَمْ يَدْرِ أَيْنَ هُوَ ، وَكَانَ آخِرَ مَا يَعْنِيهِ  
اسْتِيلَاؤُهُ عَلَى الْمَصْبَاحِ الزَّيْتِيِّ ، وَأَنْطِفَاءُ شُعْلَتِهِ ، وَتَحْطِيمُهُ . وَأَدْهَشَهُ  
أَنَّهُ فِي صَبَاحَةٍ جَيِّدَةٍ لَا يُعَانِي جُوعًا وَلَا عَطَشًا ، بِرَغْمِ كُلِّ مَا لَقَاهُ  
قَبْلَ فَقْدَانِهِ وَعَيْهِ ، وَلَمْ يَدْرِ السَّرَّ فِي ذَلِكَ .

وَلَا حَظَّ مُمَثِّلُ الْإِتْهَامِ تَنْبَهُ كَرِيمُ الدِّينِ ، فَصَاحَ بِصَوْتٍ  
عَالٍ : « لَقَدْ أَفَاقَ الْمُتَّهَمُ أَخِيرًا . فَلْتَبْدَأِ الْمَحَاكِمَةُ . »

تَطَلَّعَ الْجَمِيعُ إِلَيْهِ عَلَى الْفُورِ ، وَدَقَّ الْقَضَاةُ الثَّلَاثُ الْمِنْصَةَ  
بِمَطَارِقٍ خَشَبِيَّةٍ مُتَشَابِهَةٍ فِي لِحْظَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَقَالُوا فِي صَوْتٍ وَاحِدٍ  
رَاصِينَ : « لَتَبْدَأِ الْمَحَاكِمَةُ . »

صَاحَ كَرِيمُ الدِّينِ غَاضِبًا : « مَا الَّذِي يَدُورُ حَوْلِي هُنَا ؟ هَلْ أَنَا  
مُتَّهَمٌ تُعْقَدُ لِي مُحَاكِمَةٌ ؟ »

قَالَ مُمَثِّلُ الْإِتْهَامِ : « بَلْ إِنَّكَ مُتَّهَمٌ بِأَخْطَرِ تَهْمَةٍ لَدَيْنَا ، وَهِيَ  
سَرَقَتُكَ لِمَصْبَاحِ الْحِكْمَةِ ، وَتَحْطِيمُهُ . »

عَاوَدَ كَرِيمُ الدِّينِ الصَّبَاحَ بِصَوْتٍ أَعْلَى : « أَيُّ مَصْبَاحٍ هَذَا  
الَّذِي تَتَحَدَّثُ عَنْهُ أَيُّهَا الْخَرَفُ ؟ إِنَّ كُلَّ مَا أَخَذْتَهُ مِنْ ذَلِكَ الْقَزَمِ

الْأَحْمَقِ مُجَرَّدُ مَصْبَاحٍ زَيْتِيٍّ بَغِيضٍ ، عَرَضْتُ أَنْ أَدْفَعَ لَهُ مِئَةَ دِينَارٍ  
مِنَ الذَّهَبِ ثَمَنًا لَهُ فَرَقَضَ . وَلَكِنِّي كُنْتُ فِي حَاجَةٍ إِلَيْهِ ، اضْطُرَرْتُ  
لِأَخْذِهِ مِنْهُ قَسْرًا لِكَيْ أَغَادِرَ هَذِهِ الْأَرْضَ الضَّيَّابِيَّةَ . »

صَاحَ مُمَثِّلُ الدِّفَاعِ بِدَوْرِهِ غَاضِبًا : « إِنَّكَ بِذَلِكَ قُمْتَ بِأَبْشَعِ  
جَرِيمَةٍ أَيُّهَا الشَّابُّ . فَبِالإِضَافَةِ إِلَى اقْتِحَامِكَ أَرْضَنَا دُونَ إِذْنٍ ، فَقَدْ  
تَعَدَّيْتَ عَلَى حَامِلِ مَصْبَاحِ الْحِكْمَةِ وَسَلَبْتَهُ مِنْهُ ، ثُمَّ عَامَلْتَ الْمَصْبَاحَ  
فِي مَهَانَةٍ ؛ فَوَطَّئْتَهُ بِقَدَمَيْكَ وَحَطَّمْتَهُ . »

كَظَمَ كَرِيمُ الدِّينِ غَيْظُهُ ، وَقَالَ : « مَا هُوَ إِلَّا مَصْبَاحٌ كَأَيِّ  
مَصْبَاحٍ آخَرَ ، وَلَا أَدْرِي لِمَاذَا تَوَلَّوْنَهُ كُلَّ هَذِهِ الْأَهْمِيَّةِ ، وَتَدْعُونَهُ  
مَصْبَاحَ الْحِكْمَةِ ، وَهُوَ لَيْسَ مِنَ الذَّهَبِ أَوْ الْفِضَّةِ ؟ »

أَجَابَهُ الْقَضَاةُ الثَّلَاثَةُ فِي صَوْتٍ وَاحِدٍ : « إِنَّ هَذَا الْمَصْبَاحَ رَمَزٌ  
لِشَعْنِنَا ، تَمَامًا كَالْعَلَمِ فِي الْبُلْدَانِ الْآخَرَى . وَاحْتِرَامُ هَذَا الْمَصْبَاحِ  
شَيْءٌ مُقَدَّسٌ فِي حَيَاتِنَا . وَأَنْتَ بِمَا فَعَلْتَهُ احْتَقَرْتَ شَيْئًا نَحْتَرِّمُهُ  
وَنَبْجِلُهُ ، بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ لَيْسَ مَصْنُوعًا مِنَ الذَّهَبِ أَوْ الْفِضَّةِ كَمَا  
قُلْتَ . »

قَالَ كَرِيمُ الدِّينِ حَائِرًا : « إِنِّي لَا أَفْهَمُ شَيْئًا مِمَّا يَدُورُ حَوْلِي ،  
وَلَا أَدْرِي أَهْمِيَّةَ هَذَا الْمَصْبَاحِ . »



نَهَضَ حَامِلُ الْمِصْبَاحِ ، وَقَالَ لِكَرِيمِ الدِّينِ : « سَأَقْصُرُ عَلَيْكَ شَيْئًا رُبَّمَا يُفَسِّرُ الْأَمْرَ لَكَ : مِنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ عِنْدَمَا اسْتَقَرَّ أَجْدَادُنَا الْأَقْرَامُ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ ، مَنَعَهُمُ الضُّبَابُ الْكَثِيفُ مِنَ الرُّؤْيَةِ أَوْ الْعَمَلِ ؛ فَكَادُوا يَهْلِكُونَ جوعًا وَعَطَشًا ، لَوْلَا أَنْ اخْتَرَعَ أَحَدُهُمْ هَذَا الْمِصْبَاحَ بِخَبْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ ؛ فَبَدَّدَ لِأَجْدَادِنَا بَعْضَ الضُّبَابِ الْكَثِيفِ حَوْلَهُمْ ، فَتَعَاوَنُوا جَمِيعًا لِصَنْعِ آلَافِ الْمِصَابِيحِ ، وَزَعَوْهَا فِي كُلِّ مَكَانٍ ، وَصَارَ أَجْدَادُنَا يَسْتَخْدِمُونَهَا لِإِنَارَةِ أَرْضِهِمْ ، وَالَاهْتِدَاءِ لَطَرِيقِهِمْ وَسَطَ الضُّبَابِ الْكَثِيفِ .

« وَمَعَ مُرُورِ الزَّمَنِ تَطَوَّرَتْ قُدْرَتُنَا عَلَى الْإِبْصَارِ ، وَتَكَيَّفَتْ مَعَ هَذَا الضُّبَابِ ، وَصِرْنَا نَسْتَطِيعُ الرُّؤْيَةَ خِلَالَهُ دُونَ مِصَابِيحٍ ، وَلَكِنْ كَانَ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ عَلَيْنَا أَنْ نَتَخَلَّصَ مِنْ تِلْكَ الْمِصَابِيحِ الَّتِي رَافَقَتْنَا لِسِنِينَ طَوِيلَةٍ ، وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ فَإِنَّهَا صَارَتْ بِلا جَدْوَى بِسَبَبِ تَطَوُّرِ أُسَالِيبِ الْإِبْصَارِ ، وَقُدْرَتِنَا عَلَى الرُّؤْيَةِ فِي الضُّبَابِ .

« وَلِهَذَا فَكَّرَ أَحَدُ حُكَمَائِنَا فِي أَنْ نَحْتَفِظَ بِمِصْبَاحٍ وَاحِدٍ مِنْ تِلْكَ الْمِصَابِيحِ ؛ لِيَكُونَ رَمْزًا لِحِكْمَةِ الْأَجْدَادِ وَعِلْمِهِمْ ، وَلِكَيْ لَا يَنْسَى شَعْبُ الْأَقْرَامِ أَنَّ هَذِهِ الْحِكْمَةَ وَالْمَعْرِفَةَ هِيَ الَّتِي أَبْقَتْهُمْ أَحْيَاءَ حَتَّى الْيَوْمِ .

بَانَتْ الدَّهْشَةُ عَلَى وَجْهِ كَرِيمِ الدِّينِ ، وَقَالَ : « هَذَا أَمْرٌ غَرِيبٌ ! وَحَتَّى إِذَا كَانَ صَاحِبًا فَلِمَاذَا كَانَ ذَلِكَ الْقَرْمُ يَدُورُ بَاحِثًا عَنْ الْحِكْمَةِ بِهَذَا الْمِصْبَاحِ ؟ إِنَّ الْحِكْمَةَ لَيْسَتْ شَيْئًا مُخْتَفِيًا فِي الظُّلَامِ ، يَتِمُّ الْبَحْثُ عَنْهُ تَحْتَ ضَوْءِ الْمِصَابِيحِ .

أَجَابَهُ الْقُضَاةُ الثَّلَاثَةُ فِي صَوْتٍ وَاحِدٍ رَصِينٍ : « أَنْتَ عَلَى حَقٍّ فِيمَا قُلْتَهُ . وَلَكِنْ مَا كَانَ يَفْعَلُهُ حَامِلُ مِصْبَاحِ الْحِكْمَةِ هُوَ رَمَزٌ أَيْضًا ؛ لِكَيْ لَا يَنْسَى شَعْبُ الْحِكْمَةِ الَّتِي أَنْقَذَتْهُ مِنَ الْفَنَاءِ ، فَيَضَعُوهَا نُصَبَ عُيُونِهِمْ ، وَيَبْتَخِثُوا عَنْهَا لَيْلَ نَهَارٍ ، فَتَكُونَ دُسْتُورُهُمْ وَقَانُونُهُمْ ؛ فَالْحِكْمَةُ هِيَ الشَّيْءُ الْوَاحِدُ الْقَادِرُ عَلَى اخْتِرَاقِ حُجُبِ الظُّلَامِ ، وَإِنَارَةِ بَصِيرَةِ الْإِنْسَانِ وَعَقْلِهِ . فَهَلْ أَدْرَكْتَ الْآنَ أَيَّ خَطَأٍ ارْتَكَبْتَهُ ، أَيُّهَا الشَّابُّ ، لِقِلَّةِ حِكْمَتِكَ وَتَبَصُّرِكَ ؟

نَكَّسَ كَرِيمُ الدِّينِ رَأْسَهُ فِي أَسْفٍ ، وَقَالَ : « إِنَّنِي أَعْتَرِفُ بِخَطْئِي وَتَهَوُّرِي ؛ فَإِنِّي - كَمَا قُلْتُمْ تَمَامًا أَيُّهَا الْقُضَاةُ الْمَوْقُرُونَ - تَنَقُّصُنِي هَذِهِ الْحِكْمَةُ ، بِرَغْمِ كُلِّ مَا تَعَلَّمْتُهُ فِي رِحْلَتِي الطَّوِيلَةِ ، سَعْيًا لِلْوُصُولِ إِلَى جَبَلِ الْحِكْمَةِ .

هَبَّ الْقُضَاةُ الثَّلَاثَةُ وَاقِفِينَ فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَقَالُوا : « وَلَكِنْ اعْتِرَافَكَ بِالْخَطَأِ لَا يَمْحُوهُ . وَمِنْ ثَمَّ يَجِبُ أَنْ تَدْفَعَ ثَمَنًا غَالِيًا لَهَا ؛



لَكِي تَكُونَ أَكْثَرَ حِكْمَةً فِي الْمَرَّةِ الْقَادِمَةِ ، وَلَكِي لَا تَنْدَفَعُ خَلْفَ  
تَهَوُّرِكَ أَهْلِ الطَّائِشِ ؛ وَلِهَذَا حَكَمْنَا عَلَيْكَ ، حَسَبَ قَانُونِنَا ،  
بِالسُّجْنِ عِشْرِينَ عَامًا .

صَرَخَ كَرِيمُ الدِّينِ : « لَا يُمْكِنُكُمْ أَنْ تَسْجُنُونِي كُلَّ هَذِهِ  
السَّنِينَ . »

وَفَاضَتْ عَيْنَاهُ بِالْدمُوعِ وَهُوَ يَعْضُ شَفَتَهُ نَدَمًا عَلَى مَا فَعَلَهُ .

## الفصل العاشر بُلُوعُ جَبَلِ الْحِكْمَةِ

نَهَضَ مُمَثِّلُ الدِّفَاعِ ، وَقَالَ : « مَوْلَايَ الْمَلِكُ ، إِنَّ الْمُتَّهَمَ يَلْتَمِسُ  
عَطْفَكَ وَرِعَايَتَكَ لِتَخْفِيفِ الْحُكْمِ الصَّادِرِ ضِدَّهُ ؛ لِأَنَّهُ كَانَ جَاهِلًا  
بِقَوَائِنِنَا وَرَمَزَ حِكْمَتِنَا . »

قَالَ الْمَلِكُ عَابِسًا : « إِنَّ الْجَهْلَ بِالقَانُونِ لَا يُعْفَى مِنَ الْعُقُوبَةِ ،  
وَلَكِنِّي مُسْتَعِدٌّ لِتَخْفِيزِ مُدَّةِ السُّجْنِ لِلنَّصَفِ ، إِذَا اسْتَطَاعَ هَذَا  
الشَّابُّ تَعْلِيمَ عَشْرَةِ أَقْزَامِ الْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ . »

هَتَفَ كَرِيمُ الدِّينِ وَقَدْ حَيَا الْأَمَلُ فِي صَدْرِهِ : « إِنِّي مُسْتَعِدٌّ  
لِذَلِكَ أَهْلِ الْمَلِكِ ، وَلَكِنْ عَشْرَ سَنَوَاتٍ سَجْنَا مُدَّةَ طَوِيلَةٍ ؛ لَنْ  
أَسْتَطِيعَ احْتِمَالَهَا . »

عَبَثَ الْمَلِكُ بِأَصَابِعِهِ الْقَصِيرَةِ فِي لِحْيَتِهِ الطَّوِيلَةِ ، وَقَالَ :  
« يُمْكِنُنِي تَخْفِيزُ هَذِهِ السَّنَوَاتِ الْعَشْرِ لِلنَّصَفِ أَيْضًا ؛ إِذَا عَلِمْتَ



هؤلاء الأقرام بجانب القراءة والكتابة ، الحكمة والأدب والتاريخ ،  
مُسْتَعِينًا بِمَكْتَبَةِ الْأَقْرَامِ ، الَّتِي تَحْوِي آلافاً مِنْ كُتُبِ الثَّرَاثِ  
وَالْحِكْمَةِ وَالْأَدَبِ .

حَيَا الْأَمَلُ فِي نَفْسِ كَرِيمِ الدِّينِ أَكْثَرَ ، وَصَاحَ : « إِنِّي مُسْتَعِدٌّ  
لِذَلِكَ ، يَا مَوْلَايَ . وَلَكِنَّ السَّجْنَ خَمْسَ سَنَوَاتٍ مُدَّةً طَوِيلَةً جِدًّا  
بِالنِّسْبَةِ لِي .

نَهَضَ الْمَلِكُ قَائِلًا : « فِي هَذِهِ الْحَالَةِ لَا يَكُونُ أَمَامَكَ غَيْرُ تَعْلِيمِ  
هؤلاء الأقرام - بِالإضافة إلى ما سَبَقَ - اللُّغَةُ الْيُونَانِيَّةُ ، فَتَقْضِي  
فِي السَّجْنِ نِصْفَ السَّنَوَاتِ الْخَمْسِ فَقَطُ . أَمَّا إِذَا عَلِمْتَهُمْ  
الْفَارْسِيَّةَ أَيْضًا ، فَسَتُصْبِحُ عَقُوبَتُكَ خَمْسَةَ عَشَرَ شَهْرًا فَقَطُ . وَفِي  
هَذِهِ الْحَالَةِ سَتَكُونُ مُدَّةُ قَضَائِكَ الْعُقُوبَةَ دَاخِلَ مَكْتَبَةِ قَصْرِي وَلَيْسَ  
فِي السَّجْنِ ؛ لَأَنَّا لَا نَسْمَحُ لِلْإِنْسَانِ يُعَلِّمَ أَبْنَاءَنَا الْعُلُومَ النَّافِعَةَ  
بِدُخُولِ السَّجْنِ .

أَشْرَقَ وَجْهُ كَرِيمِ الدِّينِ ، وَقَالَ : « إِنِّي مُوَافِقٌ أَيُّهَا الْمَلِكُ  
الكَرِيمُ . وَسَوْفَ أَقُومُ بِتَعْلِيمِ عَشْرَةِ أَقْرَامٍ كُلِّ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ فِي  
الْمَوْعِدِ الْمَضْرُوبِ .

وَأَمَرَ الْمَلِكُ فَرَفَعَتِ الْجَلْسَةُ ، وَتَمَّ إِخْرَاجُ كَرِيمِ الدِّينِ مِنَ  
السَّجْنِ ، وَذَهَبَ بِهِ الْحَارِسُ إِلَى مَكْتَبَةِ الْقَصْرِ ، وَتَمَّ اخْتِيَارُ عَشْرَةِ

أَقْرَامٍ يَجْهَلُونَ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ ؛ لِيَبْدَأَ كَرِيمُ الدِّينِ تَعْلِيمَهُمْ .

وَضَعَ كَرِيمُ الدِّينِ خُطَّةً لِنَفْسِهِ ، فَأَخَذَ يَدْرُسُ فِي أَوْقَاتِ فَرَاغِهِ  
كُلَّ كُتُبِ الْحِكْمَةِ وَالْأَدَابِ وَالتَّارِيخِ بِمَكْتَبَةِ الْقَصْرِ ، وَيَنْهَلُ مِنْهَا  
فِي شَغَفٍ ، فَاسْتَوْعَبَهَا تَمَامًا .

وَعِنْدَمَا أَتَمَّ تَعْلِيمَ الْأَقْرَامِ الْعَشْرَةِ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ خِلَالَ أَسَابِيعٍ  
قَلِيلَةٍ ، كَانَ جَاهِزًا لِتَلْقِينِهِمْ دُرُوسَ الْحِكْمَةِ وَالْأَدَابِ وَالتَّارِيخِ .  
وَخِلَالَ ذَلِكَ الْوَقْتِ وَضَعَ خُطَّةً أُخْرَى لِإِكْمَالِ مُهِمَّتِهِ ، فَقَدْ كَانَ  
يَجْهَلُ اللُّغَاتِ الْأَجْنِبِيَّةَ : الْيُونَانِيَّةَ وَالْفَارْسِيَّةَ وَغَيْرَهُمَا ، وَكَانَ عَلَيْهِ  
تَعَلُّمُهَا قَبْلَ أَنْ يَقُومَ بِتَدْرِيسِهَا لِتَلَامِيذِهِ ، فَأَنْكَبُ عَلَى كُتُبِ اللُّغَاتِ  
فِي غَيْرِ أَوْقَاتِ التَّدْرِيسِ ، وَأَخَذَ يَسْتَدْكِرُهَا وَيَسْتَوْعِبُ مُفْرَدَاتِ  
كَلِمَاتِهَا وَقَوَاعِدَهَا ، حَتَّى اتَّقَنَهَا فِي وَقْتٍ قِيَاسِيٍّ ، بِسَبَبِ تَحَمُّسِهِ  
لِدِرَاسَتِهَا ، وَحُبِّهَا لَهَا .

وَعِنْدَمَا أَجَادَهَا تَمَامًا ، قَالَ لِنَفْسِهِ فِي أَسْفٍ : « لَيْتَنِي تَعَلَّمْتُ  
هَذِهِ اللُّغَاتِ مِنْ قَبْلُ ؛ فَإِنِّي أَشْعُرُ أَنَّ مَعْرِفَتِي وَقِيَمَتِي تَضَاعَفَتْ بِهَا ،  
كَمَا حَدَّثَ لِي عِنْدَمَا اسْتَوْعِبْتُ الْأَدَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّارِيخَ . وَلِحُسْنِ  
الْحِظِّ أَتَاخَتُ لِي هَذِهِ الْفُرْصَةُ دِرَاسَتِهَا رَغْمًا عَنِّي !

وَعِنْدَمَا انْتَهَى مِنْ تَلْقِينِ دُرُوسِ الْحِكْمَةِ وَالتَّارِيخِ وَالْأَدَابِ لِتَلَامِيذِهِ  
الْعَشْرَةِ خِلَالَ أَشْهُرٍ قَلِيلَةٍ ، كَانَ قَدْ أَجَادَ اللُّغَتَيْنِ الْيُونَانِيَّةَ وَالْفَارْسِيَّةَ ،



فَأَخَذَ يُعَلِّمُهُمَا لِتَلَامِيذِهِ فِي مَهَارَةٍ وَبَلَاغَةٍ . وَصَارَ يَقْطَعُ فِي دُرُوسِهِ  
لَهُمْ عَشْرَةَ أَضْعَافٍ مَا كَانَ يَقْطَعُهُ الْمُعَلِّمُونَ الْآخَرُونَ .

وَعِنْدَمَا انْتَهَتْ الشُّهُورُ الْخَمْسَةُ عَشَرَ كَانَ كَرِيمُ الدِّينِ قَدْ انْتَهَى  
مِنْ مُهِمَّتِهِ ، فِي تَعْلِيمِ الْأَقْزَامِ الْعَشْرَةِ اللَّغَتَيْنِ .

وَفِي اخْتِبَارِ عَقْدِهِ حُكَمَاءُ الْأَقْزَامِ لِامْتِحَانِ الْأَقْزَامِ الْعَشْرَةِ ،  
أَجَابَ هَؤُلَاءِ الْأَقْزَامِ بِإِجَابَاتٍ رَائِعَةٍ ، عَنْ كُلِّ الْأَسْئَلَةِ الَّتِي وَجَّهَتْ  
لَهُمْ فِي الْآدَابِ وَالتَّارِيخِ وَالْحِكْمَةِ ، وَنَطَقُوا بِلِسَانٍ سَلِيمٍ أَشْعَارًا مِنْ  
الْفَارْسِيَّةِ وَالْيُونَانِيَّةِ ، وَحَلُّوا أَلْغَازَ قَوَاعِدِهِمَا وَأَسْرَارَ بِلَاغَتِهِمَا ؛ فَسَّرُ  
مُمْتَحِنُوهُمْ لِذَلِكَ ، وَمَنْحُوهُمْ شَهَادَاتٍ تَفُوقُ ؛ فَسَعِدَ كَرِيمُ الدِّينِ  
بِذَلِكَ ، وَفَاضَتْ عَيْنَاهُ بِدُمُوعِ الْفَرَحَةِ بَعْدَ نَجَاحِهِ فِي مُهِمَّتِهِ .  
وَأَسْتَقْبَلَهُ مَلِكُ الْأَقْزَامِ فِي بَشَاشَةٍ ، وَقَالَ لَهُ :

« لَقَدْ نَجَحْتَ فِي مُهِمَّتِكَ نَجَاحًا بَاهِرًا ، أَيُّهَا الشَّابُّ ،  
وَأَظْهَرْتَ حِكْمَةً وَتَفَوُّقًا فِي تَعْلِيمِ تَلَامِيذِكَ ، فَمَحَوْتَ بِذَلِكَ خَطَاكَ  
الْأَوَّلَ . وَلَا يَسَعُنَا غَيْرُ الْاعْتِرَافِ بِفَضْلِكَ ؛ لَأَنَّ تَلَامِيذَكَ الْعَشْرَةَ  
سَيَصِيرُونَ مُعَلِّمِينَ أَيْضًا ، وَسَيَقُومُونَ بِتَعْلِيمِ غَيْرِهِمْ مَا تَعَلَّمُوهُ مِنْكَ ،  
فَتَتَّسِعُ دَائِرَةُ الْاسْتِفَادَةِ مِنْ عَمَلِكَ الطَّيِّبِ . »

أَحْنَى كَرِيمُ الدِّينِ رَأْسَهُ لِمَلِكِ الْأَقْزَامِ ، وَقَالَ لَهُ : « أَنَا أَيْضًا

أَشْكُرُكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ ؛ لِأَنَّكَ أَتَحْتُ لِي هَذِهِ الْفُرْصَةَ لِكَيْ أَعْلَمَ  
نَفْسِي أَوَّلًا ؛ فَلَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّ الْكُتُبَ تَحْوِي كُلَّ هَذِهِ الْحِكْمَةِ  
وَالْمَعَارِفِ ؛ فَأَنَا الْمَدِينُ لَكَ بِالشُّكْرِ ، يَا مَوْلَايَ ؛ فَلَوْلَا حُكْمُكَ  
الصَّائِبُ ، لَضَاعَتْ سِنُو عُمْرِي هَبَاءً فِي السَّجْنِ ، وَلَخَسِرْتُ مَعَارِفَ  
عَدِيدَةٍ وَعُلُومًا ثَمِينَةً . »

هَزَّ الْمَلِكُ رَأْسَهُ فِي سُرُورٍ ، وَقَالَ : « لِهَذَا أَسْمَوُا أَرْضَنَا بِأَرْضِ  
الْحِكْمَةِ ؛ لِأَنَّا نَغْلِبُ الْحِكْمَةَ فِي كُلِّ نَوَاحِي حَيَاتِنَا . وَحَتَّى فِي  
قِمَّةِ غَضَبِنَا ، تَتَغَلَّبُ حِكْمَتُنَا عَلَى غَضَبِنَا ، كَمَا حَدَثَ مَعَكَ .  
وَالْآنَ ، أَنْتَ حُرٌّ ، يَا كَرِيمُ الدِّينِ ، وَتَسْتَطِيعُ مُغَادَرَةَ أَرْضِنَا وَقَتْمَا  
تَشَاءُ ، وَسَيَقُودُكَ بَعْضُ الْأَقْزَامِ إِلَى جَبَلِ الْحِكْمَةِ ؛ فَقَدْ صِرْتَ  
جَدِيرًا لِلْبُلُوغِ قِمَّتِهِ . »

شَكَرَ كَرِيمُ الدِّينِ الْمَلِكَ ، وَامْتَطَى جَوَادَهُ الْأَشْهَبَ ، وَسَارَ وَسَطَ  
كَوْكَبَةٍ مِنْ فُرْسَانِ الْأَقْزَامِ ، قَادُوهُ خِلَالَ نَهَارٍ كَامِلٍ إِلَى خَارِجِ  
أَرْضِ الْأَقْزَامِ الَّتِي يُحِيطُهَا الضُّبَابُ . وَبَعْدَ أَنْ اجْتَازَهَا تَجَلَّى لِعَيْنَيْ  
كَرِيمِ الدِّينِ - أَخِيرًا - مَا كَانَ يَسْعَى إِلَيْهِ : جَبَلُ الْحِكْمَةِ الشَّامَخُ .

كَانَ مَنْظَرُ الْجَبَلِ مَهِيْبًا ، يُشِيرُ الرَّجْفَةُ فِي الْأَبْدَانِ ؛ فَقِمَّتُهُ تَرْتَفِعُ  
إِلَى مَا يُقَارِبُ السُّحَابَ ، وَتَنْتَشِرُ الْحَدَائِقُ وَالْأَزْهَارُ وَالرِّيَّاحِينَ فَوْقَ  
مُدْرَجَاتِهِ ، وَتَتَسَاقَطُ الْمِيَاهُ الْعَذْبَةُ مِنْ عُيُونٍ خَفِيَّةٍ ، وَتَتَدَلَّى الثَّمَارُ



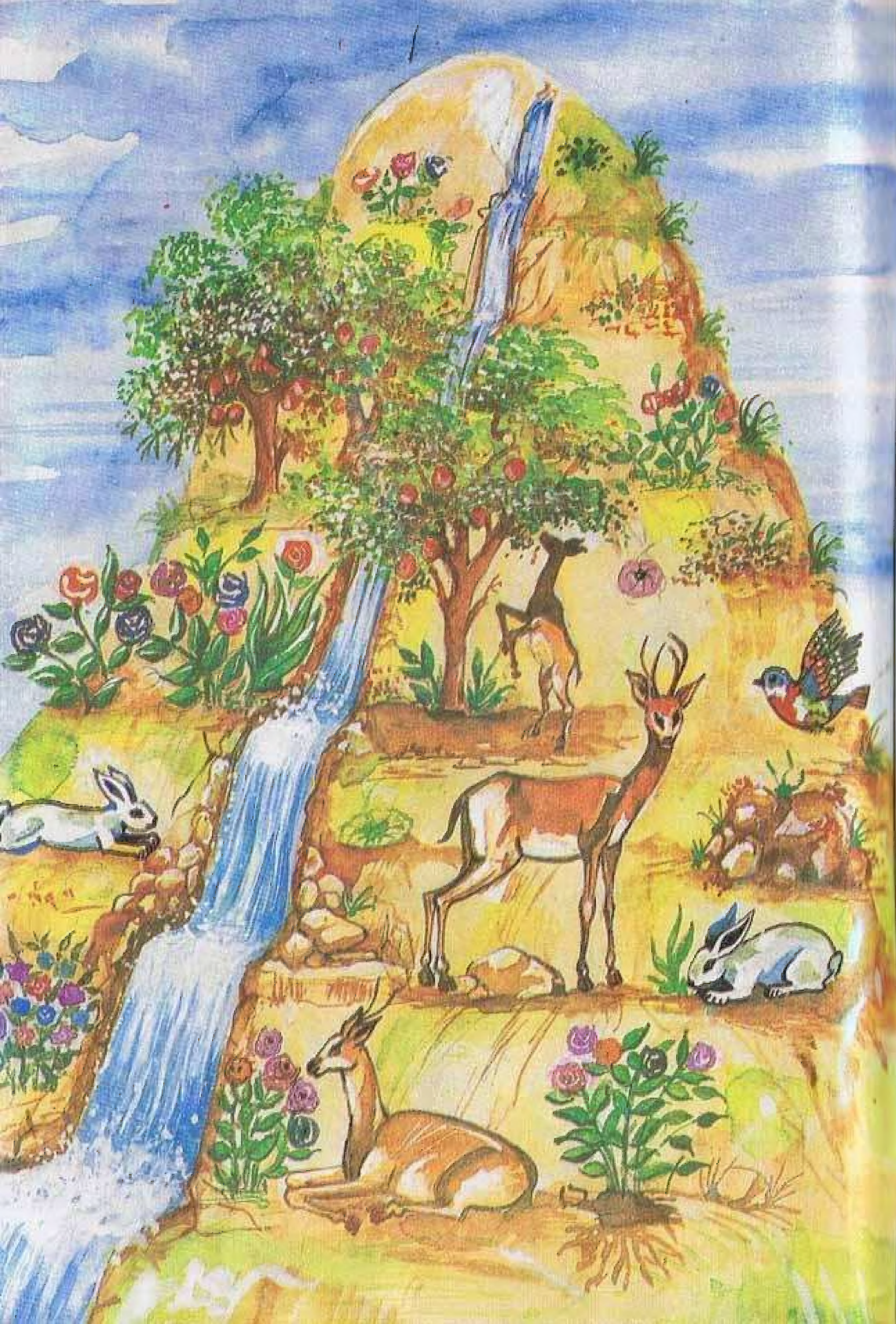
دَانِيَةُ الْقُطُوفِ مِنْ فَوْقِ أَشْجَارِهِ الْمُتَنَوِّعَةِ ، عَلَى حِينِ تَمَرُّحِ الْغِزْلَانِ  
وَالْأَرَانِبِ الْبَرِيَّةِ فَوْقَ صُخُورِهِ وَأَحْجَارِهِ .

تَأْمَلُ كَرِيمُ الدِّينِ الْمَشْهَدَ الرَّائِعَ أَمَامَهُ غَيْرَ مُصَدِّقٍ ، وَقَالَ  
لِنَفْسِهِ : « مَا أَرَوَعَ مَنْظَرَ هَذَا الْجَبَلِ ! إِنَّهُ مَشْهَدٌ لَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ عَيْنَايَ  
مِنْ قَبْلُ ، وَقَدْ اشْتَاقْتُ نَفْسِي كَثِيرًا لِصُعُودِ قِمَّتِهِ وَمُقَابَلَةِ النَّاسِكِ  
الْمُتَعَبِّدِ . »

وَهَبَّطَ مِنْ فَوْقِ جَوَادِهِ ، وَرَبَّتْ فَوْقَ مَعْرِفَتِهِ قَائِلًا : « أَنْتَظِرْنِي  
هُنَا ، يَا أَشْهَبُ ، وَلَا تَقْلُقْ مِنَ الْبَقَاءِ مَهْمَا طَالَ أَنْتِظَارُكَ ؛ فَإِنَّ لِي  
مَعَ سَاكِنِ هَذَا الْجَبَلِ حَدِيثًا طَوِيلًا . »

وَفِي الْحَالِ بَدَأَ كَرِيمُ الدِّينِ تَسْلُقَ الْجَبَلَ إِلَى أَنْ حَلَّ اللَّيْلُ ،  
فَاقْتَطَفَ بَعْضَ ثَمَرَاتِ أَشْجَارِهِ ، وَنَهَلَ مِنْ مِيَاهِهِ الْعَذْبَةِ ، وَرَقَدَ فِي  
اللَّيْلِ وَسَطَ حَدِيقَةٍ بَدِيعَةٍ مِنَ الْأَزْهَارِ الْفَوَاحَةِ . وَفِي الصَّبَاحِ وَاصَلَ  
مُهْمَتَهُ ، فَبَلَغَ قِمَّةَ الْجَبَلِ عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ . وَوَجَدَ كَرِيمُ الدِّينِ  
مُفَاجَأَةً أَكْثَرَ إِثَارَةً فِي أَنْتِظَارِهِ !

كَانَتْ قِمَّةُ الْجَبَلِ عَامِرَةً بِالْحَيَوَانَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ : أَسُودَ وَنَمُورَ  
وَذَنَابٍ وَضَبَاعٍ وَثَعَالِبَ ، تَرْقُدُ بِجَوَارِهَا غِزْلَانٌ وَأَرَانِبُ بَرِيَّةٍ وَخِرَافَ  
وَشِبَاهَ وَدِيعَةٍ ، وَقَدْ تَأَلَّفَتِ الْوُحُوشُ مَعَ الْحَيَوَانَاتِ الْمُسَالِمَةِ ، فَاخْتَدَتْ





تَمَسَّحَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ ، وَتَلَهُو مَعًا ، دُونَ أَنْ تَخْشَى الْحَيَوَانَاتُ  
الْأَلِيفَةَ مِنْ رَفِيقَاتِهَا الْكَاسِرَةِ . وَعَلَى مَقَرَّبَةٍ كَانَ الْحَمَامُ وَالْيَمَامُ  
يُرْفَرُ عَالِيًا ، تُرَافِقُهُ الصُّقُورُ وَالنُّسُورُ ، دُونَ أَنْ تُحَاوِلَ الطُّيُورُ  
الْكَاسِرَةَ التِّهَامَ أَوْ إِذَاءَ رَفِيقَاتِهَا الْأَلِيفَةِ .

تَعَجَّبَ كَرِيمُ الدِّينِ مِنَ الْمَشْهَدِ الَّذِي رَأَاهُ أَمَامَهُ ، وَهَتَفَ لِنَفْسِهِ  
غَيْرَ مُصَدِّقٍ : « إِنِّي أَشْعُرُ كَأَنِّي فِي حُلْمٍ ! كَيْفَ تَمَكَّنَ هَذَا  
النَّاسِكُ الْمُتَعَبِّدُ مِنْ جَعْلِ الْوُحُوشِ تَتَالُفُ مَعَ الْحَيَوَانَاتِ الْأَلِيفَةِ ،  
وَالصُّقُورِ وَالنُّسُورِ تُصَادِقُ الطُّيُورَ الْوَدِيعَةَ ، دُونَ أَنْ تُحَاوِلَ إِذَاءَهَا ؟ »

وَتَلَفَّتْ حَوْلَهُ بَاحِثًا عَنِ النَّاسِكِ الْمُتَعَبِّدِ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَعْثُرْ عَلَيْهِ ، وَلَمْ  
تَقَعْ عَيْنَاهُ عَلَى أَيِّ مَسْكَنٍ أَوْ كُوخٍ لَهُ فَوْقَ قِمَّةِ الْجَبَلِ ، فَتَسَاءَلَ  
دَهْشًا : « أَتَيْنَ اخْتَفَى هَذَا النَّاسِكُ الْمُتَعَبِّدُ ؟ » وَشَاهَدَ الطُّيُورَ الْأَلِيفَةَ  
وَهِيَ تَلْتَقِطُ الزُّهُورَ بِمَنَاقِيرِهَا وَتُلْقِيهَا فِي بُقْعَةٍ مُعَيَّنَةٍ ، فَاقْتَرَبَ دَهْشًا  
مِنْ ذَلِكَ الْمَكَانِ لِيَسْتَكْشِفَهُ .

وَتَوَقَّفَ مَذْهُولًا عِنْدَمَا شَاهَدَ قَبْرًا صَغِيرًا يَرْتَفِعُ قَلِيلًا عَنِ الْأَرْضِ ،  
وَفِي نِهَايَتِهِ شَاهِدٌ مِنَ الرُّخَامِ ، وَقَدْ نُقِشَتْ فَوْقَهُ كَلِمَاتٌ بِحُرُوفٍ  
دَقِيقَةٍ . وَأَنْحَنَى كَرِيمُ الدِّينِ عَلَى الشَّاهِدِ يَقْرَأُ الْكَلِمَاتِ الْمُنْقُوشَةَ  
فَوْقَهُ فِي صَوْتٍ خَفِيفٍ :

« هُنَا يَرْقُدُ النَّاسِكُ الْمُتَعَبِّدُ لِلَّهِ رَقَدَتَهُ الْأَبَدِيَّةُ . فَيَا أَيُّهَا الْغَرِيبُ

الْقَادِمُ مِنْ بِلَادٍ بَعِيدَةٍ ، إِنْ كُنْتَ قَدْ جِئْتَ تَسْعَى طَالِبًا لِلْمَعْرِفَةِ  
وَالْحِكْمَةِ الَّتِي تُحَوِّلُ النُّحَاسَ وَالْقَصْدِيرَ وَالتُّرَابَ إِلَى ذَهَبٍ ، فَقَدْ  
بَلَغْتَهَا ؛ فَمَا مِنْ إِنْسَانٍ يَسْتَطِيعُ الْوُصُولَ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ ، إِلَّا إِذَا  
كَانَ قَدْ اِمْتَلَكَ الْحِكْمَةَ وَالْمَعْرِفَةَ وَالْعُلُومَ وَالْمَهَارَةَ ، الَّتِي تُحَوِّلُ تَوَافِهِ  
الْأَشْيَاءَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ إِلَى ذَهَبٍ . وَتَذَكَّرُ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ - وَالذِّكْرَى  
تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ - أَنَّهُ لَيْسَ بِالذَّهَبِ وَحْدَهُ يَحْيَا الْإِنْسَانُ . »

فَاضَتْ عَيْنَا كَرِيمِ الدِّينِ بِالْذُّمُوعِ ، وَهَمَسَ قَائِلًا : « صَدَقَتْ  
أَيُّهَا النَّاسِكُ الصَّالِحُ ؛ فَلَيْسَ بِالذَّهَبِ وَحْدَهُ يَحْيَا الْإِنْسَانُ ؛ فَإِنَّ  
الْحِكْمَةَ وَالْمَعْرِفَةَ الَّتِي تَوَصَّلْتُ إِلَيْهَا بَعْدَ عَنَاءٍ - أُرْسَدْتَنِي إِلَى ذَلِكَ  
أَيْضًا . وَلَوْ أَنِّي طَالَعْتُ مَا تَرَكَهُ لِي أَبِي مِنْ كُتُبٍ ، وَحَاوَلْتُ  
الِاسْتِفَادَةَ مِنْهَا ؛ لَوْفَرْتُ عَلَى نَفْسِي مَشَقَّةً كَبِيرَةً وَمَخَاطِرَ جَمَّةً ،  
سَعْيًا لِلْوُصُولِ إِلَى هَذِهِ الْحِكْمَةِ . »

وَأَقْتَطَفَ كَرِيمُ الدِّينِ بَعْضَ الزُّهُورِ وَالرِّيَّاحِينَ ، وَوَضَعَهَا أَمَامَ  
شَاهِدِ الْقَبْرِ . وَقَضَى لَيْلَتَهُ سَاهِرًا مُتَفَكِّرًا فِي رِحْلَتِهِ الشَّاقَّةِ الَّتِي  
اسْتَعْرِقَتْ وَقْتًُا طَوِيلًا ، وَالنَّتِيجَةُ الَّتِي انْتَهَتْ إِلَيْهَا .

وَفِي الْفَجْرِ بَدَأَ هُبُوطَهُ الْجَبَلَ ، وَقَرَابَةَ الظُّهْرِ وَصَلَ إِلَى مَكَانٍ  
جَوَادِهِ ، فَامْتَطَاهُ قَائِلًا : « هَيَّا بِنَا ، يَا أَشْهَبُ ، فَقَدْ حَانَ أَوَانُ رَحِيلِي  
وَعَوَدْتِي إِلَى وَطَنِي . »



وَاسْتَعْرِقَتْ رَحْلَهُ عَوْدَةَ كَرِيمِ الدِّينِ شُهوراً طَوِيلَةً ، أَنْفَقَ فِيهَا مَا  
تَبَقِيَ مَعَهُ مِنْ دَنَانِيرَ ذَهَبِيَّةٍ ، حَتَّى بَلَغَ وَطَنَهُ فِي النِّهَايَةِ ، فَشَعَرَ  
بِسَعَادَةٍ غَامِرَةٍ حِينَ وَجَدَ أَنَّ وَكِيلَهُ لَا يَزَالُ يَحْتَفِظُ لَدَيْهِ بِكُتُبِ وَالِدِهِ  
رَئِيسِ التُّجَّارِ حَكِيمِ الدِّينِ ، فَاسْتَعَادَهَا مِنْهُ ، ثُمَّ بَدَأَ عَمَلَهُ أَجِيراً .

وَعِنْدَمَا ادَّخَرَ قَلِيلاً مِنَ الْمَالِ اسْتَثْمَرَهُ فِي التِّجَارَةِ . فَلَمَّا تَوَفَّرَ لَهُ  
مَزِيدٌ مِنَ الْمَالِ اشْتَرَى بِهِ بَضَائِعَ كَثِيرَةً ، وَاسْتَأْجَرَ سَفِينَةً كَبِيرَةً  
اسْتَخْدَمَهَا فِي التَّنْقُلِ بَيْنَ الْبِلَادِ وَالْبَحَارِ . وَبِفَضْلِ مَهَارَتِهِ وَخَبِرَتِهِ  
نَمَتْ تِجَارَتُهُ وَزَادَتْ أَرْبَاحُهُ خِلَالَ وَقْتٍ قَصِيرٍ ؛ فَأَصَابَ ثَرَاءً عَظِيماً ،  
وَاسْتَعَادَ كَرِيمُ الدِّينِ كُلُّ مَا كَانَ قَدْ وَرِثَهُ عَنْ أَبِيهِ وَبَدَّدَهُ مِنْ قَبْلُ .  
وَتَضَاعَفَ مَالُهُ أَكْثَرَ مِمَّا كَانَ لِوَالِدِهِ ، فَاخْتَارَهُ كُلُّ التُّجَّارِ رَئِيساً  
لَهُمْ ، وَصَارَ مَضْرِبَ الْأَمْثَالِ فِي الْمَعْرِفَةِ وَالْحِكْمَةِ .

وَأَخَذَ كَرِيمُ الدِّينِ يَتَصَدَّقُ مِنْ مَالِهِ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمُحْتَاجِينَ ،  
وَكُلَّمَا تَصَدَّقَ أَكْثَرَ اتَّسَعَ رِزْقُهُ ، كَأَنَّمَا يَأْبَى الْمَالُ إِلَّا أَنْ يَعُودَ لَهُ  
مُضَاعَفاً . ثُمَّ تَزَوَّجَ بِفَتَاةٍ صَالِحَةٍ أَنْجَبَتْ لَهُ أَطْفَالاً عَدِيدِينَ ، أَخَذَ  
يُلْقِنُهُمْ كُلَّ عُلُومِهِ وَمَعَارِفِهِ ، وَهُوَ يَحْرُسُ عَلَى ذَلِكَ ، أَكْثَرَ مِنْ  
حِرْصِهِ عَلَى تَنْمِيَةِ مَالِهِ وَاسْتِزَادَتِهِ . وَكَانَ يَقُولُ لِنَفْسِهِ :

« صَدَقْتَ أَيُّهَا النَّاسِ الْكَاسِيُ الْمُتَعَبُّ ؛ فَلَيْسَ بِالذَّهَبِ وَحْدَهُ يَحْيَا  
الْإِنْسَانُ ؛ فَإِنْ بُلُوغُ الْحِكْمَةِ وَالْمَعْرِفَةِ وَسَكِينَةُ الْقَلْبِ ، وَغُرْسُ  
الْفَضَائِلِ وَالْقِيَمِ السَّامِيَةِ فِي الْأَبْنَاءِ لَأَهَمُّ مِنْ ذَهَبِ الْعَالَمِ كُلِّهِ . »



## المغامرات المشهورة

- ١- مغامرة في الأدغال
- ٢- مغامرة في الفضاء
- ٣- مغامرة أسيرين
- ٤- مغامرة في الجزيرة الخضراء
- ٥- مغامرة على الشاطئ
- ٦- الجاسوس الطائر
- ٧- لصووس الطريق
- ٨- حمد الغواص الشجاع
- ٩- اللصان الغيبان
- ١٠- مطاردة لصووس السيارات
- ١١- منامرات السندباد البحري
- ١٢- أنية خطرة
- ١٣- الحشرة الذهبية وقصص أخرى
- ١٤- اللؤلؤة السوداء
- ١٥- سر الجزيرة
- ١٦- مغامرة في النهر
- ١٧- شبح الحديدية وقصص أخرى
- ١٨- سر الدرجات التسع والثلاثين
- ١٩- الجاسوس وقصص أخرى
- ٢٠- مغامرات توم سوير
- ٢١- المختطف
- ٢٢- الكمبيوتر الرهيب
- ٢٣- الأميرة المتوحشة وقصتان أخريان
- ٢٤- موسيقى الليل وقصتان أخريان
- ٢٥- الناب الأبيض
- ٢٦- موبى دك
- ٢٧- سر القط الفرعوني
- ٢٨- سجين زنذا
- ٢٩- مغامرات هكليري فن
- ٣٠- الفرسان الثلاثة
- ٣١- رحلة كريم الدين

مكتبة لبنان ناشرون

رئيس مجلس إدارة: كسروان - لبنان

01C 198233

في الكتاب